مدينة العزلة

مدينة العزلة

رواية

أحمد صابر

دار المرايا للانتاج الثقافي

إهداء ....

إلى من علمني معنى الجمال والحياة٠
إلى فاطمة

الفصل الأول

١

يفتح عينيه بتثاقل، يمر هواء بارد استيقظ على أثره من النوم. يسند ظهره إلى حائط مبنى، جالسا على الأرض واضعا يديه على رأسه، صداع شديد وجفناه نصف مسدلين وأطياف صغيرة تتحرك في الهواء حوله، حرك رأسه يمينا ويسارا، مبانٍ معتمة تتراص بجانب بعضها، وعمدان الإنارة على امتداد الشارع، تعطي ضوءا باهتا. بعملية حسابية بسيطة رغم ألم رأسه الشديد، خمن أن بين كل عامود وآخر عشر خطوات.

يرتدي قميصا بخطوط طولية بيضاء وسوداء، ووجد معصم يديه فارغا، يرتدي ساعة دائما لا تفارقه إلا وقت النوم، لأنه دائم القلق تجاه الوقت، يتذكر هذا جيدا، الساعة في معصمه والقلق حول الوقت، لكنه لسوء الحظ، لا يتذكر شيئا إلا الساعة والقلق، لا يذكر اسمه أو سبب الصداع. بعد مرور دقائق، تذكر أنه يكره القمصان ذات الأكمام الطويلة، شعر بالارتياح لتذكره ثلاثة أمور على الأقل، الساعة والقلق حول الوقت، وكرهه للقمصان ذات الأكمام الطويلة.

فكر أن ذاكرته تعود ببطء، قد يتذكر اسمه لاحقا وسبب جلوسه

على الأرض، في ليلة باردة دون جاكيت، وأسباب الصداع المؤلم. بدأت قوة الصداع تخفت، أصبحت رؤيته أفضل وغادرت أخيرا الأطياف الصغيرة.

نظر إلى الشارع، العمدان على جانبي الطريق والمباني المكونة من ثلاثة طوابق بلا شرفات، الملتصقة ببعضها. المبنى المقابل لمكان جلوسه، مكون من ثلاثة طوابق، لكنه قدر أن كل المباني ثلاثة أدوار، لأنها متساوية في الارتفاع.

نظر إلى السماء، سحب كثيفة معتمة، يبحث عن القمر بعينيه دون جدوى، القمر بعيد، ومصدر الإضاءة الوحيد، عمدان الإنارة الخافتة. حاول الوقوف دهمه ألم مبرح في أنحاء جسده، جلس ثانية، مسندا ظهره إلى المبنى، شغل وقته بالعمليات الحسابية الصغيرة، لعل ذاكرته تعود. هواء بارد جعله يرتعش، شعر بالرعب من فكرة ومضت في ذهنه، أن يكون عالقا هنا، يرتدي قميصا أكمامه طويلة ومعصمه خالٍ من ساعة يد، بلا ذاكرة تسعفه على النجاة، في شارع شبه معتم، إلى الأبد.

٢

ظل جالسا وحده فترة طويلة، الشارع خالٍ، لا يوجد إنسان واحد يمر، لا يوجد شيء يمر سوى الهواء البارد، ومن بعيد رأى شبحا يقف في المنتصف، شبحا مظلما، يقف على قاعدة. حاول التذكر، يركز ذهنه ويغمض عينيه، ألاعيبه بلا فائدة، ما زال رجلا بلا اسم عالقا هنا، مشاعره مضطربة وعقله فارغ. الليل يجثم على صدره، وألم الرأس ذهب بلا رجعة.

غفا في مكان جلوسه، غفوة طويلة أو قصيرة لا يعرف، لا يملك ساعة. استيقظ على يد تربت على كتفه، امرأة جالسة على ركبتيها

أمامه، لاحظ هالات سوداء كثيفة تحيط بعينيها رغم الضوء الباهت. لا يتبين وجهها كاملا، ترتدي ملابس سوداء. قالت مستفهمة:

- ما زلت هنا؟

- أنا آسف، هل تعرفينني؟ أنا لا أتذكر شيئا!

قالت:

- أعرفك، كنت برفقتك ليلة أمس وعدنا معا إلى منزلي!

- عدنا من أين؟

- من حانة قريبة.

ساعدته على النهوض، ما زال جسده يتألم، مشى معها بخطوات بطيئة، أشارت إلى مدخل مبنى يبعد عدة خطوات. قالت:

- أسكن في الدور الأول هنا.

٣

جلس على الأريكة في مواجهة النافذة، صالة صغيرة جدا، وفي الأرض أعقاب سجائر ملقاة ونقط صغيرة سوداء، حروق صغيرة سببتها السجائر، قبل دهسها على السجادة، التي تتوسط الصالة. ذكرته أعقاب السجائر بشيء ما لا يعرفه، مشهد بعيد، مشوش وباهت.

ارتدت المرأة بيجامة بيضاء واسعة لا تناسب جسدها النحيف، قال:

- ما اسمك؟

قالت المرأة مستغربة:

- لا توجد أسماء!

- لا أفهم؟

قالت بلا اهتمام:

- غدا ستفهم، يبدو أنك مريض.

- لا أتذكر اسمي حتى.

- غدا في الصباح نذهب إلى المنشأة وتتلقى العلاج.

- أي علاج!

قالت بصبر يكاد ينفد:

- لا أحب الأحاديث، نم الآن. وأشارت إلى الأريكة.

بدا تائها وحائرا. وجه المرأة الغاضب، الحزين، كلماتها القليلة، بيجامتها غير اللائقة، أشياء أثارت بداخله، خوفا لا يداويه إلا بالنوم.

٤

يقف عاريا، ينساب الماء الدافئ على جسده، يحاول التذكر، ما زال لا يعرف عن نفسه إلا ثلاثة أشياء. كان يقف في مواجهة الحائط، سمع الباب يفتح، أدار وجهه، وجد المرأة تنظر إليه عابسة، لا يجد شيئا يضعه على جسده، نظر إليها مندهشا، بدت مشغولة بأمر آخر، قالت:

- ما سبب تلك الندبات؟

- أي ندبات؟!

- على جسدك، ثلاث عشرة ندبة!

نظـر إلى جسـده، بـدأ يلمـس الندبـات، كأنهـا محفـورة في جلـده، جميعهـا تتـوزع في أنحـاء بطنـه وصـدره، قـال:

- لا أعرف!

قالت:

- هل يمكننا ممارسة الجنس قبل الذهاب؟

أربكتـه كلماتهـا الغريبـة، كيـف تطلـب الجنـس ببسـاطة، كأنهـا تطلـب طعامـا. قـال:

- ما عملك؟

- تعبئة الطعام في علب صغيرة. ثم عادت للقول:

- سأنتظرك في الخارج وأعد القهوة، لا تتأخر.

تركتـه وحيـدا، لمـس بيديـه مجـددا الحفـر العميقـة في أنحـاء صـدره، وعـادت محـاولات التذكـر.

خـرج مـن الحـمام مرتديـا نفـس ملابسـه، القميـص والبنطـال الجينـز الفضفـاض. وجـد المـرأة تجلـس عـلى الأريكـة تدخـن وتـشرب القهـوة، وتنظـر عـبر النافـذة سـاهمة. جلـس قريبـا منهـا، وأخـذ فنجـان القهـوة مـن عـلى الطاولـة الصغـيرة، قـال في نفسـه، كل شيء في هـذا المنـزل صغـير وضيـق. عندمـا ارتشـف القهـوة كاد يبصقهـا، مذاقهـا سـيئ، لاحظـت المـرأة وقالـت:

- ستعتاد عليها.

تثـير المـرأة بداخلـه خوفـا أكـبر مـن خـوف كونـه سـيبقى عالقـا إلى الأبـد بـدون اسـم، يرتـدي قميصـا أكمامـه طويلـة، ومعصمـه فـارغ.

أنهى فنجانه مضطرا، لا يريد توجيه رسالة سيئة إلى المرأة، لا يعرف سواها. اكتفت بسحبه من يده ودخول غرفة النوم. سرير صغير ودولاب يكفي شخصا واحدا، جلس على طرف السرير يترقب، فيما هي تتعرى، وظهر الارتباك جليا على وجهه. قالت بعد صمت دام ثواني معدودة:

- لننتهي سريعا، لا أريد التأخر على العمل.

استلقى على السرير نصف عار، صعدت فوقه وبحركات آلية، مارسا الجنس بلا أصوات أو مداعبات، دون أي شيء، سوى صوت اهتزاز السرير.

غارقا في أفكاره، ناظرا إلى وجه المرأة الغريبة البائس.

٥

في الشارع وجد نفسه في مدينة تعج بالبؤساء، يشبهون جميعهم المرأة الغريبة، التي تسير بجواره بخطوات بطيئة. ملابسهم السوداء تثير ذعره، كأنه يسير في جنازة كبيرة، وجوه متجهمة حزينة. عندما ينظر في عين شخص فترة طويلة، يبتسم هذا الشخص، ابتسامة قصيرة مصطنعة تصيبه بالغثيان.

أخبرته المرأة أن المنشأة قريبة وليس عليهما ركوب التروماي، هز رأسه موافقا، مرتبكا مما يرى.

٦

جلس على مقعد أمام موظفة، ترتدي نظارة سميكة، يومها سيئ كما خمن. تعد المرأة القهوة، طلبت منه أن ينتظر قليلا. جلست على مكتبها وأشعلت سيجارة. شعرها قصير وكالعادة وجه متجهم. سألته:

- ألا تذكر شيئا؟

- لا.

بـدون مقدمـات تركتـه وحيـدا في المكتـب وخرجـت. بقـي وحيـدا مـع محـاولات التذكـر.

عـادت الموظفـة بعـد دقائـق، وخوفـه يتعاظـم مـع كل دقيقـة تمـر. خلفـه مـن نافـذة المكتـب، تهطـل الأمطـار.

قالت الموظفة:

- أنت ٢١١٢.

قال مندهشا:

- أنا من؟

- ٢١١٢.

- هذا أنا؟

- نعم.

- ما زلت لا أفهم؟

- تفهم ماذا؟

- مـا اسـمي؟ قالـت المـرأة التـي جـاءت بي إلى هنـا أننـي سـأعرف كل شيء عـن نفـسي.

قالت الموظفة وهي تنظر صوبه:

- وأنت تعرف الآن، لا نستخدم الأسماء هنا، نستخدم الأرقام.

- كيف فقدت الذاكرة؟

- حادث يتكرر كثيرا، بسبب ضغوطات الحياة، لا تقلق.

ظل جالسا أمامها خائفا، وتسري البرودة في أطرافه. قالت:

- عد بعد ساعتين أو ثلاث، سوف تستلم بدلتك والبالطو، ستعرف مكان عملك وسكنك.

وقف مرتبكا، لا يغادره الارتباك أو الخوف.

قبل خروجه من المكتب قالت الموظفة، دون النظر إليه:

- لديك ميعاد مع الطبيب النفسي أيضا اليوم، لا تتأخر.

صمت مريب، لا يقطعه سوى وقع خطواته على السلالم الخشبية للمنشأة الكئيبة. تساءل أين عساه يذهب؟

٧

تهطل الأمطار كثيفة وثقيلة. السماء معتمة، يرتعش من برودة الجو، ابتل كامل ملابسه، شعره قصير وجسده طويل ونحيف، يتسرب البرد إلى عظامه. دار حول تمثال ضخم يتوسط الميدان، رجل ذقنه طويلة، نظراته شاخصة إلى الأمام. في طريقه للمنشأة، قبل هطول الأمطار، مر بأربعة تماثيل ضخمة تتوسط الميادين. رأى من بعيد ثلاثة مقاهٍ متجاورة، فكر في الدفء وفنجان قهوة ساخن، وضع يده في جيبه، وجده خاويا، لكنه قرر الدخول على أي حال. اختار المقهى الأول ودفع الباب الزجاجي، وجد مجموعة من العجائز يرتدون بدلات سوداء، وقف قرب الباب يحرك عينيه قلقا، يرتعش، ودائما خائفا ومرتبكا.

الفصل الثاني

١

قبل عشر سنوات من استيقاظ "٢١١٢" فاقدا الذاكرة وسط شارع شبه معتم. في منتصف ديسمبر عام ٢٠٢٠، استيقظ السيد إبراهيم عندما شعر أن شيئا يجثم على صدره، للوهلة الأولى خمن أن التهاب المعدة قد عاد، ظل في السرير دقائق يضغط على معدته بأصابعه كما تعود سابقا. مرض التهاب المعدة يجعله يعاني من أوجاع مختلفة، في مناطق متفرقة من جسده، ودائما يعود الالتهاب لأنه لا يستمع إلى نصائح الطبيب المعالج ويدخن سيجارة مع كوب قهوة، قبل تناول فطوره، عادة قديمة تعلمها من والده، ليبدأ يومه مستيقظا ولا يستسلم لإغراء العودة إلى السرير. تمنى الرحمة لوالديه، ولأول مرة منذ سنوات طويلة لا يذكر عددها، اشتاق إليهما وشعر بحزن فقدانهما، رغم بلوغه الثانية والستين قبل ثلاثة شهور. مشاعره غريبة هذا الصباح، بجانب الاشتياق إلى والديه، شعر بحزن مبهم، عرف بعد ذلك ما يشعر به جيدا، ربما لأول مرة في حياته، يشعر أنه وحيد. تأمل زوجته النائمة، المستلقية قربه في سلام، شعر نحوها بالغرابة، كأنه لا يعرفها. في كل صباح يكون ممتنا وسعيدا بسبب وجودها، اليوم لا يوجد امتنان، يوجد حزن فقط.

تحرك من السرير إلى المطبخ، وقف أمام النافذة، بدأ يشرب قهوته المعتادة ويراقب الثلج يتساقط. دخن أربع سجائر على غير العادة، وبدأ في استعادة ذكريات حياته الأكثر تعاسة، أشياء عدة تغيرت هذا الصباح. استيقظت زوجته على رائحة دخان سجائره، رأته يقف قرب النافذة، وعندما اقتربت منه وجدت في طفاية السجائر، ثلاثة أعقاب ويدخن الرابعة. قالت:

- أنت غبي؟ أتحسب نفسك صغيرا؟

نظر إليها غاضبا وقال:

- ماذا؟

- السيجارة الرابعة؟ لقد حذرك الطبيب من سيجارة واحدة قبل الإفطار، وأنت الآن تدخن الرابعة!

أخذ ثلاثة أنفاس طويلة غير آبه بنظرات زوجته ودهشتها من سلوكه الغريب، ودهس السيجارة على بلاط المطبخ هذه المرة. يقف مرتديا بيجامة النوم، ونظراته الحائرة فضحت ارتباكه، اقتربت الزوجة، وقالت:

- ماذا حدث؟

- لا أعرف. ثم عاد للقول:

- صباح غريب.

قالت الزوجة وقد بدا القلق على وجهها واضحا:

- هل طردوك من العمل بالأمس؟

- لا، لكنني حزين.

- لماذا؟

حاول البحث عن جواب لائق، يصف به شعوره من أجل إخبار زوجته سبب حزنه، لكنه لم يجد وقال:

- لا أعرف، استيقظت حزينا فقط وأيضا...

بدا مترددا في نطق جملة «أشعر بالوحدة» قد يكون الجواب طعنة في قلبها، لأنه على امتداد زواجهما، لم يداهمه شعور مماثل، والآن بعد ثلاثين عاما من الزواج، يستيقظ ويشعر بالوحدة وهي معه. قال:

- سأذهب للعمل وسأعود بخير.

بدأت الزوجة في تحضير الفطار، وعاد السيد إبراهيم إلى غرفة النوم ليبدل ملابسه، خوفا من التأخر على العمل، استغرب شعوره، خصوصا أن اليوم في السادسة مساء، يبدأ الغناء لعيد الميلاد، طقس المدينة الأبدي، يغني الناس في الشوارع ومن نوافذ المنازل طوال ساعة أغنيات الميلاد، حسب ترتيب معين لمدة عشرة أيام حتى مجيء يوم الميلاد، يغني الجميع، أصحاب الديانات المختلفة وحتى من لا يؤمن بوجود الرب يغني، مبتهجا. في المطبخ جهزت الزوجة الفطار، وذهبت لتستعجل زوجها خوفا من تأخره على العمل، وجدته جالسا على السرير ينتحب بصوت خافت.

٢

لا أحد يعرف على وجه الدقة، كيف بدأ الأمر، كيف اجتاح الحزن، والشعور بالعزلة المدينة. رفقة السيد إبراهيم، استيقظ المئات على أحزان تعصر قلوبهم، وشعور طاغٍ بالوحدة اقتلع السعادة من داخلهم، وبمرور الساعات في الخامس عشر من ديسمبر، كانت المدينة بأكملها، تصطبغ وجوه سكانها بالتعاسة، ولم يُسمع صوت الغناء إلا من أطفال دون الخامسة عشر، وتغلبت أصوات النحيب، الصادرة عن

الجميع، على أصوات غناء الأطفال، وتحولت الأجواء الاحتفالية بالميلاد لأجواء جنائزية.

في الأمسيات ازدحمت الشوارع ببشر مذعورين. الثلوج تتساقط والهواء البارد يلفح الوجوه التعسة، وداخل الحانات والمقاهي تبادل الناس نظرات قلقة وحزينة، والكل يغرق في تعاسته الخاصة. وإحساس العزلة ابتلع الجميع في فجوة ما، انبثقت من العدم، وهكذا لأيام، أصبح الناس يتجاورون في كل مكان دون إحساس ببعضهم، كأن كل شخص يعيش وحده في مدينة خالية، كئيبة. لا أحد يهتم بالآخر، تفككت العلاقات وعاش الناس مجبورين على الاختلاط، تفصلهم مسافات شاسعة.

٣

انتشر الوباء خلال ساعات قليلة، وتحركت السلطات بعد أيام، عندما تعددت حالات الانتحار. هذا الوباء ليس قاتلا، لكنه يدفعك نحو الموت بخطوات ثابتة، بلا خوف من المجهول على الجهة الأخرى، لطالما خاف الناس في هذه المدينة من الموت، رغم تدين نصف السكان وخروجهم في أيام الآحاد جماعات لزيارة الكنائس، والمواظبة على الصلاة داخل المساجد، ظل الموت مخيفا حتى الخامس عشر من ديسمبر، أصبحت الحياة لا تحتمل، عندما تستيقظ كل صباح وأنت تشعر بالوحدة والحزن، حتى إن كنت متزوجا، سترى زوجتك بعيدة للغاية، وأصدقاءك بلا فائدة، لا يوجد ما يبدد الحزن سوى الموت.

٤

في ثالث أيام وباء الوحدة والحزن، عاد إبرام إلى منزله عاقد العزم على الموت، يحمل بين يديه رواية «الأبله» لديستويفسكى، بدأ في قراءة

الروايـة قبـل يومـين مـن انتشـار الوبـاء، وحـاول البقـاء عـلى قيـد الحيـاة حتـى إنهـاء الروايـة، لكـن دون جـدوى، الروايـة طويلـة وهـو لم يعـد يحتمـل، هـذا الحـزن بداخلـه وشـعوره بالاغـتراب، وعيـون الآخريـن تتبعـه، عيـون مرهقـة، مثقلـة بالأحـزان التـي جـاءت فجـأة وأغرقـت الجميـع بـلا أطـواق للنجـاة. لم ينـج أحـد، سـوى الأطفـال دون الخامسـة عـشر.

وضـع المجلـد الضخـم عـلى مكتبـه، وذهـب ليلقـي نظـرة أخـيرة عـلى والدتـه. وجدهـا تجلـس عـلى ركبتيهـا وتضـم يديهـا، تصـلي لتمثـال السـيدة مريـم العـذراء، بكلـمات خافتـة. اقـترب منهـا محـاولا سـماع مـا تقولـه. في طفولتـه كـره الـرب والسـيدة مريـم، لأن والدتـه تتبـادل معهـما أسرارهـا، ولا تخـبره بمـا تقـول. وبعـد السـنوات تحـول العـداء إلى حـب جـارف. أن تتبـادل الأسرار مـع الـرب، وتنـام مطمئنـا، سـتبقى أسرارك في مأمـن، لـذا وضـع كل أسراره مـع اللـه والسـيدة العـذراء مثـل والدتـه.

وضـع قبلـة صغـيرة عـلى شـعرها، اشـتم رائحتهـا مـرة أخـيرة، رائحـة طعامـه المفضـل، وسـمع لأول مـرة في حياتـه صلواتهـا. عـاد إلى غرفتـه سريعا وعلـق الحبـل السـميك في السـقف، وتسـاءل والحبـل حـول عنقـه، مـاذا حـدث؟ بعـد مـوت إبـرام هشـمت والدتـه تمثـال السـيدة مريـم العـذراء، تفتـت إلى قطـع صغـيرة عـلى الأرضيـة، وبـدأت في نوبـة بـكاء طويلـة، حتـى مماتهـا بعـد عـشرة أيـام مـن انتحـار ابنهـا.

إبـرام هـو أول ضحايـا الوبـاء، اتفـق الجميـع عـلى تسـميته بالوبـاء، وبـاء المـوت البطـيء، انتحـر العـشرات خـلال أسـبوع، بـلا أسـف أو خـوف. في الأسـبوع الثـاني مـن وبـاء التعاسـة، هـدأت الأمـور وبـدأ النـاس في اعتيـاد الحـزن، كجـزء مـن حياتهـم، مثلـه مثـل الطعـام، وبقـي الانتحـار خـلال السـنوات اللاحقـة لكـن بوتـيرة أقـل.

٥

أغلقت الشرطة كل الطرق المؤدية إلى المدينة، ارتعب العالم من انتشار وباء الحزن والوحدة، وأخليت عدة قرى صغيرة كانت تقع بالقرب من المدينة المأهولة بالسكان، وأصبح الطريق المؤدي إلى المدينة، طوال مئات الكيلومترات، طريق أشباح، لا تجد سوى حواجز رجال الشرطة فقط.

أصاب الهلع العالم، حتى إنه في مدينة بعيدة عن المدينة المنكوبة، خاف ديكتاتور طاعن في السن من إصابة شعبه بالوباء، لا يريد أن يفقد امتيازه الوحيد على الناس، وهو إخافتهم، يحيا على خوفهم، لكن التعاسة تقتل الخوف بداخلهم، خصوصا تجاه الموت، وذلك أكثر ما يرعب الديكتاتور، يهددهم دائما بإرسالهم للموت، حتى لو حكم مدينة خالية من السكان، مكونة من منازل مهجورة فقط.

٦

العزلة المؤقتة التي صنعتها مواقع التواصل الاجتماعي، وفضاء الإنترنت اللانهائي، تحولت إلى عزلة دائمة، عزلة حقيقية، عاش الناس في كنفها.

الجميع يبحث عن السعادة الدائمة والجسد المثالي، والسفر حول العالم، ونبذ واقعه. من خلال شاشة صغيرة راقب الناس بعضهم، وكل شخص يتصور أن الآخر يعيش ما يريده، في عالم ممتلئ بالكذب، أصبح الإقبال على الحياة الواقعية ضعيفا، باتت المسارح شبه مهجورة ودور السينما تعج بالأفلام المبتذلة، والكل يغرق في شاشته. في مدينة ثائرة على الدوام، أصاب الخفوت أصواتهم المطالبة بحقهم.

الإنترنت أحد أقوى أسباب الوباء، هكذا رجح الأطباء. ومنع الإنترنت بأوامر من الحاكم، وأحرقت آلاف الهواتف الذكية، في محارق

تشبه محارق الكتب في العصور الماضية.

استسلم الناس للأوضاع والقوانين، وحدة وحزن وخنوع وذكريات سيئة دائما ما تطفو على سطح ذاكراتهم، عشر سنوات مضت في عمل مضنٍ، وأجور ضعيفة، ورغبة حقيقية في الموت، تؤجلها الأدوية والعلاج.

٧

في ليلة الرابع عشر من ديسمبر، قرب سور مدرسة، طلب رجل يد حبيبته للزواج، بدا متوجسا من رفضها وخاف من الحياة بلا ابتسامتها في الصباح. ركع على ركبتيه وطلب يدها. كانا عائدين من سهرة في منزل أحد الأصدقاء، قميصه متعرق بسبب رقصه المتواصل طوال الليل، وترتدي هي فستانا أبيض، أوقفها قرب سور المدرسة، واعترف لها بحبه، راغبا في أن تعيش معه إلى الأبد، وبعد الأبد، إذا وجدت حياة ثانية، تمتم بكلمات قليلة، لكنها سمعت جيدا رغم توتره وخفوت صوته الأجش، هزت رأسها موافقة ومبتسمة وتطاير شعرها البني الطويل، بعدما عبر هواء ديسمبر بجانبهما.

أوصلها إلى المنزل، وبعفوية كتب بخط كبير على حائط السور، أمام الموضع الذي جلس فيه على ركبتيه "هنا وافقت على الزواج مني".

آخر اعتراف بالحب عرفته المدينة، قبل دخولها في حالة الحزن، وما زالت جملته على سور المدرسة أثرا من حياة مضت.

تلاشت الاعترافات بالحب. اختفى الحب ليفسح المجال للأحزان والعزلة، مقاومته ضعيفة، اندثر سريعا ولا يتذكر أحد بعد عشر سنوات ما هو الحب؟

٨

مضت الحياة، عشر سنوات بين العمل الشاق والحانات والمقاهي، وجوه ساهمة وتعسة، وعيون أغلبها محمر من فرط البكاء، كبر الناس أضعاف أعمارهم الحقيقية، وكل أسبوع ينتحر شخص أو اثنان.

فرض على الرجال ارتداء البدلات السوداء، والنساء ترتدي فساتين سوداء، بعد صدور قانون من حاكم لا يجد اعتراضات. يلبي الناس رغبات الحاكم وقوانينه، مشغولين بأحزانهم ووحدتهم، ويأملون في يوم من السعادة أو حتى لحظة عابرة.

يبدأ اليوم بعد الوباء في الثامنة صباحا، يذهب الرجال والنساء مرتدين ملابسهم السوداء، إلى العمل في المصانع، وكل شخص يملك بدلة عمل زرقاء. تنتهي المناوبة الأولى في الثانية عشرة ظهرا، فترة راحة تمتد ثلاث ساعات، وفي الرابعة يعود الناس إلى العمل، لا يتغيب أحد إلا للموت أو ميعاد دوائه والحديث مع الطبيب عبر الميكروفون، ويبقى العمل من الرابعة إلى التاسعة مساء.

يذهب البعض إلى السينما، أفلام مكررة ضعيفة، السينما مجانية، وألغي المسرح تماما، لأنه لا يوجد من يرغب في رؤية ممثلين في رواية هزلية، وجوههم تعيسة. وكقانون، منعت الكتب، إلا قصص الحب، كتبها كتاب مغمورون يبحثون عن الشهرة في مدينة منكوبة. اعتقد الحاكم، ولم يشاركه أحد اعتقاده، أن الكتب الفلسفية والروايات المهمة أحد أسباب الوباء، ولحبه في الثقافة، قرر هو الكتب المهمة وغير المهمة، ولم تتبق سوى قصص الحب، لعلها تثير بداخل الناس شيئا من السعادة. على أي حال تراجعت وتيرة القراءة في عصور الإنترنت داخل المدينة قبل الوباء، وبدت قراءة ديستويفسكي صعبة للجميع في عصر السرعة. وملاهي الرقص تبث أغاني هادئة، لا تجعلك راغبا في الرقص، تغيرت الأمور في المدينة، وبقي الناس على حالهم.

الفصل الثالث

١

في ثالث أعوام العزلة، التي بدت حينها أبدية جرف مجموعة من العمال حديقة واسعة، دائرية الشكل، تتوسط أكبر ميدان في المدينة، حيث كان في الماضي قبل الوباء، وأبعد قليلا، قبل عصر الإنترنت، يجلس الناس هربا من الحر في الليالي الصيفية، سعداء بنسمات الهواء القليلة.

قرر الحاكم بناء تمثال يخلد ذكرى الفيلسوف كارل ماركس، تمثال يتوسط الميدان، ليثبت لأصدقائه عمق معرفته وتقديسه لكل رجال الفكر، حتى من يختلف معهم ودائما ما كان يقول كلمات مثل:

«ماركس عظيم، لكن فلسفته تسببت في مقتل الملايين، أتمنى أن يجد بعض الراحة في الجحيم».

وعندها، يسأله أحد أصدقائه:

- أنت تؤمن بوجود النعيم الأبدي والجحيم بعد الموت؟

يحب قبل الإجابة على أي سؤال، إشعال غليونه والانتظار ثواني قبل أن يشرع في إجابة ما، قال:

- حقيقة، لدي رأي في هذا الموضوع، أومن بالجحيم، لكن النعيم هو الحياة، لذلك بعدما يموت الأخيار يذهبون للعدم، والأشرار مصيرهم الجحيم.

كان الحاكم مولعا بادعاء الثقافة، وتقديس رجال الفكر، وتمنى منذ طفولته أن يصبح مفكرا عظيما، وتبقى آراؤه خالدة يتناقش فيها الناس بعد موته، لكنه لم ينه كتابا واحدا طوال حياته، يصيبه الملل سريعا ولا يفهم ما يريده الكاتب. للتغلب على مشكلاته، بدأ يدفع المال إلى بعض الطلبة، مقابل تلخيص الكتب، التي يتباهى بقراءتها أمام أصدقائه في المجالس الفكرية، حتى رأيه في الجحيم والجنة، هو رأي طالب يجد راحته في القراءة المتواصلة واختلاق الأفكار الغريبة.

جاء إلى المدينة نحات عجوز رفقة ستة من مساعديه، ليعمل على تمثال ماركس، جاء الرجل من مدينة بعيدة، وتحمل مشقات السفر هو ومساعدوه بسبب المبلغ المالي المعروض عليهم. في البدء توجس الرجل من الذهاب إلى مدينة العزلة، خوفا من إصابته بالوباء، لا يريد أن يمضي سنواته الأخيرة معزولا وحزينا، لكن المال تغلب على الذعر والتوجس، خصوصا عندما أقنعه الحاكم أن المرض لا يصيب الدخلاء، فقط أهل المدينة التعساء.

وهكذا خلال ثلاثة أشهر كاملة، عمل العجوز ومساعدوه على التمثال، تحت رقابة الحاكم، غير المصاب بالوحدة والحزن، ووسط عيون أهل المدينة التعسة، دون تفوه أحدهم بسؤال عما يحدث، أو تمثال من هذا الذي يتوسط الميدان الأكبر، الكل غارق في أحزانه الخاصة وذكرياته الماضية. اكتمل التمثال، وفي حفل الافتتاح لم يحضر أحد من أهل المدينة، أصدقاء الحاكم فقط، القادمون من خارج المدينة حضروا، من أجل رؤية التمثال والتجول في مدينة العزلة لرؤية سيئي الحظ التعساء.

٢

قبل أربعين عاما من زمن الوباء، خرج الحاكم، وكان وقتها شابا في الثامنة عشر، رفقة عمه وباقي الأسرة مطرودا من المدينة، بعدما ثار سكان المدينة ضد والده. تتشكل الدولة من ثلاثين مدينة، والمدينة المنكوبة إحداها، عين والده حاكما على هذه المدينة، وذات صباح بدأ رجل في ارتشاف قهوته، وعندما شعر بأنها قهوة فاسدة، خرج غاضبا إلى الميدان الواسع، ميدان كارل ماركس حاليا، يهتف بسقوط الحاكم الفاسد، وتبعه الآلاف من أبناء المدينة، والكل يهتف ضد الحاكم، بسبب الطعام الرديء والقهوة السيئة، وارتفاع ثمن العقارات. جوزيف والد الحاكم كان فاسدا، لكنه اختار المدينة الخطأ لممارسة فساده واكتناز المال، خصوصا أنها مدينة مشهورة بالثورات عبر تاريخها الموغل في القدم.

قُتل والده محروقا، ووالدته ماتت معلقة من رقبتها، بأحد فساتينها الغالية، وقد اشترى جوزيف الفستان من مال المدينة المنهوب. انتهز الحاكم فرصة الوباء وطلب حكم المدينة، بعدما خاف الجميع من حكم مدينة متشبعة بالأحزان الآتية من العدم.

يكره المدينة، ما زال رماد والده المحروق منثورا في أرضها، ودفنت والدته في قبر بلا اسم، في مدافن المدينة، لكنه حول مقبرتها بعد توليه الحكم إلى ضريح، وكتب اسمها على شاهد القبر بحروف مذهبة وكتب أيضا، مع اسمها "هنا ترقد السيدة الأعظم". عاش طوال سنواته بعد حرق والده ومأساة والدته، يمقت المدينة ووصف رجالها مرارا بسلالة الخونة، ونسائها بالعاهرات، وقال لأصدقائه إن أول عاهرة في التاريخ، ولدت هنا. بدأ بفرض القوانين، بعضها بدافع الكره والتعسف ولم يجد معارضة واحدة، اللامبالاة تمكنت من أهل المدينة كما فعل الحزن. وبدافع الاحتقار وحده، منح كل شخص في المدينة رقما، وأصدر مرسوما

بإلغاء الأسماء، وبرر موقفه بسهولة حصول الجميع على العلاج النفسي، وحتى لا تكون مهمة الموظفين صعبة في حصر الأسماء، لكل إنسان رقم، وبسهولة يستطيع صرف الدواء، والتحدث مع المعالج النفسي.

وفي خلال عشر سنوات فقط، بنى عشرات المصانع، وأصبح لكل شخص وظيفة ذات مرتب قليل، تكفي طعامه وسجائره، واختار قلة تعمل في منشأة العلاج النفسي كما سميت، وهدم مئات المنازل ذات الدور الواحد والحدائق الأمامية الخضراء، وشيدت مكانها منازل أدوارها ثلاثة بدون شرفات. الكل يعمل بجهد مضاعف، لنسيان وحدته، لأن العمل، كما نصح الأطباء، يساعد على الشفاء، بجانب الدواء الدوري والجلسات الأسبوعية.

قسمت المدينة إلى قسمين، قسم المنازل والحانات والمقاهي، وقسم آخر شيدت عليه المصانع. وأسماء الشوارع والحانات والمقاهي أيضا، بأوامر من الحاكم، سميت بأسماء مفكرين وأدباء وفلاسفة، قانون عبثي أقره في نزوة أمام أصدقائه، راغبا في الحصول على اهتمامهم. يعرف الحاكم أنه يستطيع فعل ما يشاء دون معارضة، في مدينة يكرهها.

لقد كان يمضي أسعد أيامه، وسط خنوع أهل المدينة.

٣

منعت الهواتف الذكية والإنترنت، ومنع إنجاب الأطفال. من يرغب في إنجاب أطفال تعساء؟

وأصبحت مراسم الزواج تشبه مراسم الجنازات، كئيبة. وعزف الناس عن الزواج بلا قوانين، لا تبدد الرفقة الوحدة أو الأحزان.

وفي قصره على الربوة العالية، المشيد حديثا ليراقب المدينة، كان الحاكم الوحيد من يملك ابتسامة حقيقية. وقال لتابع مخلص قادم من خارج المدينة:

- ستفنى هذه المدينة في خلال سنوات.

وللتغلب على عجز المنتحرين والأموات في ظروف طبيعية، قدم الحاكم اقتراحا إلى رئيس الدولة، أن تكون المدينة منفى لغير المرغوب فيهم، بعد حقنهم بدواء اخترعه طبيب مجنون، يساعد على فقدان الذاكرة، ويصبحون مواطنين وعمال مصانع بلا حول أو قوة.

٤

وهكذا استطاع الحاكم العبث في مدينة كاملة، لا يملك رغبة حقيقية في شفاء سكانها، وكل ليلة يصلي لأجل والده ووالدته، وبعدها يشرب بعض الخمر الجيد، ويهاتف أصدقاءه ويمزح معهم بشأن أسامي الشوارع والحانات، قال أحد أصدقائه يوما:

- إنها آخر المدن الشيوعية في عالم الرأسمالية ويصفق لك كل سياسي في العالم.

وقال آخر:

- لكن حتى في المدن والدول تحت الحكم الشيوعي، كان للناس أسباب للسعادة.

يجلس مع أصدقائه شهريا، يستضيفهم في منزل شيد قرب المدينة، في القرى التي أخليت سابقا ويتبادل الحديث معهم عن مدينته. يتمنى بداخله كل ليلة ألا تعود المدينة إلى سابق عهدها، رغم أقواله عن رغبته في البحث عن دواء عاجل، أمام أصدقائه.

ويسعده إطراء أصدقائه، مدينة شيوعية أو رأسمالية لا يهتم، الناس

أمـوات، بـلا رغبـة حقيقيـة في العيـش، لديهـم خنـوع إلهـي.

تراجـع الرغبـة في الانتحـار بسـبب الـدواء والعـلاج النفـسي، يعتـبر مـن إنجـازات الحاكـم في مدينـة باتـت منسـية، تعيـش تحـت وطـأة العزلـة والابتسـامات القصـيرة المزيفـة.

٥

أصـدر الحاكـم صحيفـة واحـدة خـلال سـنوات حكمـه، عـزف النـاس عن قراءتهـا، مئـات النسـخ الملقـاة في الشـوارع. أشـياء كثـيرة اندثـرت في مدينـة، سـكانها عـلى شـفا الاندثـار. توقـف طبـع الصحيفـة، كان الحاكـم رئيـس تحريرهـا، وكاتبهـا الأول، والأخـير.

٦

مـن خـارج المدينـة أحـضر الحاكـم عـشرات الرجـال، وأعطاهـم ملابـس موحـدة، ليعاونـوه عـلى حفـظ النظـام في المدينـة. رجـال فقـراء بـلا صـوت حقيقـي، في مدينـة لا تحتـاج رجـال شرطـة.

الفصل الرابع

١

وقت دخول ٢١١٢ إلى مقهى كافكا، بدت ٤٠٠١ منهمكة في قراءة رواية منزوعة الغلاف. ترتدي نظارة سميكة ووضعت الكتاب على الطاولة، والمطر ينهمر في الخارج، يفصلها عنه الزجاج السميك. جذبت حركات ٢١١٢ المتوتر نظرها، رأته يقف في منتصف المقهى، يحرك عينيه مذعورا وخائفا ورأسه مبلل من المطر، رفعت يدها لتجذب انتباهه، نظر إليها، أشارت إلى المقعد الخالي على طاولتها، المقعد الوحيد الفارغ في مقهى مزدحم، لكنه هادئ رغم تكدس الناس بداخله. وقت الراحة من العمل، ووقت هطول الأمطار الكثيفة.

جلس أمامها يرتعش رغم دفء المقهى، برودة الخارج جاءت معه إلى الداخل، أغلقت الكتاب ومنحته معطفها المعلق على المقعد، أخذه ممتنا ووضعه على كتفيه. بدا وجهه مألوفا لديها، تعرفه من مكان ما، خلعت نظارتها وطلبت فنجاني قهوة من نادل بطيء الحركة، عجوز متجهم الوجه. ما زال الرجل المبتل أمامها لا ينطق، تركته يهدأ قليلا، عرفت علته فور رؤية نظراته وقميصه، في مدينة لا يرتدي رجالها القمصان. نظرت إلى الشارع، تنتظر هطول الثلوج، مثل طفلة صغيرة. يأتي الثلج دائما بعد الأمطار الكثيفة، الإنسانة الوحيدة التي تنتظر تغير الفصول، لا يأبه إنسان آخر في المدينة للثلج أو الأمطار أو الأيام المشمسة.

٢

روايتها منزوعة الغلاف كتبها كاتب جديد، على خلاف الآخرين يتحدث عن إنسان، يمقت العالم الحديث، الإنترنت والسيارات الفارهة والمنازل المشيدة بعجالة، أحلامه لا تشبه أحلام الإنسان الحالي في الحصول على سعادة مزيفة. رواية مهربة من الخارج، نزعت عنها غلافها الأمامي والخلفي خوفا من رجال الشرطة، نزعت كل ما يمت للمؤلف بصلة، فقط الإهداء الجميل الموجه إلى ابنته. كتاب قليلون مسموح بتداول كتبهم داخل المدينة، وقصص معينة تدور في فلك الحب والنجاح السخيفة، على حسب رأيها، وعند رؤية رجال الشرطة كتاب بدون غلاف، لا يعرفون التصرف الصحيح سوى فتح الكتاب، على أي صفحة، وهز رأسهم، وإعادة الكتاب إلى صاحبه والقول، أحيانا:

- لماذا الغلاف منزوع؟ يجب الحفاظ على الكتب في حالة جيدة.

ويرحلون. تعرف هذا لأن رجال الشرطة في المدينة، بلا حول ولا قوة، رجال تعليمهم متوسط، أحضرهم الحاكم من خارج المدينة يساعدونه على حفظ النظام وتنفيذ أوامره، رجال مغلوبون على أمرهم، جاءوا بحثا عن مرتب. يلتزم الناس بالقوانين مهما كانت غريبة، في المدينة لا يعمل رجال الشرطة سوى التجول والجلوس في مقهى خاص بهم، على أطراف المدينة لديهم خوف من الاختلاط بأهل المدينة. في حياتهم خارج المدينة كانوا رجالا عاطلين وزوجات تثرثر كثيرا بشأن المعيشة الصعبة وأطفال ضعفاء البنية، اختارهم الحاكم من آلاف المتطوعين، كل شرطي متزوج ولديه طفل أو ثلاثة أطفال، ويحتاج إلى المرتب الضخم نسبيا بمقاييس الخارج.

٣

عاشت طوال عمرها تبحث عن السعادة، سعادة حقيقية «لا

تغذيها أوهام الرأسمالية» كما اعتادت القول، لا تبحث عن استقرار مزيف وقيادة سيارة فارهة، والزواج من رجل تكرهه يملك المال. لا تريد وظيفة تقصف حياتها، والأهم، لا تريد الاستيقاظ بعد سنوات طويلة، لتكتشف أن حياتها مضت في وظيفة تكرهها، وزوج يخونها مع كل امرأة تعبر بجواره، وطفل لا يراها بالمنزل كثيرا. تملك هواجس بشأن الحياة، وتكره الإنترنت، جعل حياتها جحيما وأكثر عزلة، طوال الوقت تقريبا، كانت تتصفح الهاتف الصغير، لترى ماذا يفعل الآخرون بحياتهم، لترى أن العالم ينقسم لأغنياء وفقراء، لا تريد قراءة خبر عن مجزرة مروعة وتحته خبر عن افتتاح ناطحة سحاب بواجهة قبيحة في دولة بعيدة، لا تريد الساعات تمضي في الفضاء اللانهائي للإنترنت، أرادت القراءة أكثر والتجوال في العالم الحقيقي.

لذلك اختارت القدوم إلى مدينة التعاسة والعزلة، بمحض إرادتها، إلى المدينة الأكثر عزلة في العالم، بلا إنترنت أو أوهام. قرأت عن المدينة وتحقيقات الصحفيين. في حين تذهب المدينة إلى النسيان، كانت تتذكرها، وأحبت لفظا أطلقه أحدهم على المدينة "مدينة العزلة"، عزلة حقيقية بلا زيف الإنترنت والعالم حولها.

لا توجد سيارات في المدينة، المترو القديم أو الترومواي، يقطع شوارع المدينة مثل ثلاثينيات القرن الماضي، والبيوت مكونة من أدوار ثلاثة والجميع ينهمك في عمل ما، ولا يفرض أحد رأيه عليك أو يتدخل في شؤونك، الجميع مشغول بعزلته الخاصة.

أقنعت والدها بالذهاب إلى المدينة، رفض والدها طلبها في البداية، لكنه وافق تحت إلحاحها، مقتنعا أنها ما زالت طفلة تلهو وستنضج، ينتظرها مستقبل مشرق في عالم الأعمال والزواج من رجل دولة مرموق. والدها رجل مهم في الدولة واستطاع وضعها داخل المدينة بلا دواء فقدان الذاكرة. وافق حاكم مدينة العزلة على مضض، معتقدا أنها

فاقدة الذاكرة، بناء على رغبة والدها، فكر أنها ربما سببت له العار وأراد نفيها.

اختارت الحياة داخل مدينة العزلة، قبل ثلاث سنوات من لحظة دخول ٢١١٢ مذعورا ومبللا إلى المقهى.

تعمل في منشأة العلاج النفسي، تكتب تقارير عديمة الجدوى عن المنتحرين، مكان عملهم وأين يقطنون، لملء منازلهم لاحقا بأناس جدد، قادمين من العالم الخارجي، مغضوب عليهم أو اختار بعضهم الحياة هنا، على أمل نسيان أحزان دفينة وذكريات مؤلمة.

في العالم الخارجي، ملايين الناس، أضعاف سكان مدينة العزلة، يعيشون في عزلة العالم الحديث، بسبب أوهام السعادة الرأسمالية كما تسميها.

في يومها الأول وسط شوارع المدينة وسكانها، أصابها الذعر من العيون المحمرة، والوجوه التعيسة، ما زال وجهها نضرا وتملك ابتسامة مشرقة تستخدمها أحيانا. تدربت على امتلاك ابتسامة مزيفة مثل الجميع. وبمساعدة والدها والتهريب، تستطيع قراءة ما تشاء من الكتب، والخروج خارج حدود المدينة من مكان لا يعرفه سوى عدد قليل، وتحضر سجائر جيدة وأكياس بن، تشربها داخل منزلها فقط، في الصباح قبل ذهابها إلى المنشأة. تحب فساتينها السوداء، تمتلك تشكيلة منها، الطويلة والقصيرة، المفتوحة من الأعلى والمغلقة حتى رقبتها، وما زالت بعد ثلاث سنوات تحب الحياة هنا في وحدتها.

منذ قدومها لم تسمع تعليقات مضحكة بسبب نظارتها أو تعليقات عن جسدها الممتلئ قليلا. في الخارج، خارج حدود مدينة العزلة، توجد مقاييس للجمال. الآن تتعرى أمام رجال لا يهتمون سوى بلحظة الإيلاج، يفرغون شهوتهم ويرتدون ملابسهم ويرحلون في صمت، يروقها

الأمـر، وأحيانـا تتمنـى ليلـة ذات حـرارة الحـب، عندمـا ينظـر رجـل مـا إلى جسـدها مفتونـا، ويقـول لهـا بضـع كلـمات جميلـة في أذنهـا، أثنـاء ممارسـة الحـب.

٤

ممارســة الحــب الأخــيرة قبــل قدومهــا إلى المدينــة المنكوبــة، كانــت كارثيـة، مـا زالـت تتذكـر تهكـم حبيبهـا عـلى جسـدها، لأنـه يشـاهد أجسـاد عارضـات الأزيـاء، ووصفهـم مـرارا بالآلهـة، وهـي تحتـاج الكثـير لتحـوز إعجابـه.

تذكـرت الليلـة الكارثيـة، ولمحـة حـزن عابـرة عصفـت بهـا، وهـي تراقـب انهـمار المطـر مـن خلـف الزجـاج السـميك، وأمامهـا رجـل يرتعـش، وافـد جديـد يسـتعد لارتـداء البدلـة السـوداء، وتسـمع أحاديـث خافتـة، متقطعة، تـدور في المقهـى.

سـعيدة وسـط العـالم المعـزول، وترغـب في البقـاء إلى الأبـد هنـا، في فعـل الأشـياء ذاتهـا، وقـراءة الكتـب المهربـة وتدخـين السـجائر، وحب نفسـها.

الفصل الخامس

١

قال ٢١١٢:

- شكرا جدا.

نظرت إليه مبتسمة وقالت:

- لا شكر على واجب، ما زلت تشعر بالبرد؟

- قليلا فقط.

- أين بدلتك؟

- سأستلمها بعد قليل، لدي موعد بعد ساعة تقريبا.

- ستأخذ معطفا سميكا أيضا ترتديه. وعادت للقول:

- الأجواء باردة في الخارج.

- نعم جدا.

- ديسمبر، بعد قليل، وربما بعد ساعة ستهطل الثلوج وربما غدا.

- كيف تعرفين؟

- أنا أعيش هنا، يجب أن تعرف هذا أنت أيضا.

- أنا لا أذكر شيئا منذ أمس.

قالت:

- لا تقلق، إنها حالة معتادة.

- نعم، أتمنى.

- اهدأ، تبدو مذعورا.

- نعم، جدا.

حاولت البحث عن كلمات مناسبة، تفتح بها حديثا مع رجل فاقد الذاكرة، قالت:

- ما رقمك؟

- ٢١١٢.

- رقم مميز.

- لماذا يحمل الناس أرقاما؟ أين أسماؤهم؟

تفاجأت بالسؤال، لا يسأله عادة أحد، خصوصا رجل فاقد الذاكرة في مدينة العزلة، ربما الموظفة لم تقم بعملها جيدا، أو الدواء لم يأخذ مجراه جيدا، صمتت، ونظرت إلى الشارع الخالي، يتكدس الناس في المقاهي والمنازل الآن. عادت تنظر إليه، ما زال ينتظر جوابها، قالت:

- لا أعرف.

- هذا غريب.

قالت:

- تحمل الشوارع والمقاهي أسماء؟

- نعم، والناس؟

- الناس بلا أسماء عليك اعتياد الأمر.

قالت جملتها غاضبة، لا تجد الأجوبة المناسبة، أرادت مساعدته. نكس رأسه، يعبث بعلبة سجائرها، رأت الحيرة والذعر في وجهه، قالت:

- أتحب القراءة؟

- لا أذكر.

- هذا المقهى اسمه كافكا على اسم كاتب شهير.

- أيحب صاحب المقهى هذا الكاتب؟

- لا، إنها أوامر الحاكم.

هز رأسه مستسلما، وقال:

- لماذا وجوه الناس تعيسة؟ ولماذا اللون الأسود؟

- إنها قوانين أيضا.

- ما علاقة التعاسة بالقوانين؟

عاد الصمت بينهما، ما زالت حائرة بشأن الإجابة عن أسئلته، خطأ من هذا؟ جرعة الدواء، قبل قدومه لم تكن كافية، أو الله تدخل.

٢

راقبا سويا من خلف الزجاج، مجموعة من العجائز في طريقهم

إلى الكنيسة، يسيرون ببطء، وكل واحد يحمل مظلته الخاصة للوقاية من المطر، كل مظلة تحمل لونا مختلفا، أزرق وأخضر وأحمر، ألوانا عدة، لم يفرض القانون لونا خاصا على ألوان المظلات، مر الأمر بسلام، المظلات تعود إلى سنوات ما قبل الوباء، قبل أعوام العزلة. بدا المنظر مبهجا لكليهما، رغم كآبة من يحملون المظلات، وألوانهم السوداء، قال ٢١١٢:

- إلى أين يذهبون؟

- إلى الكنيسة، للصلاة.

قال، بعد تردد:

- كأنهم في طريقهم إلى جنازة.

عاد الصمت، قبل أن يقطعه هو مجددا:

- أتريدين الذهاب إلى الكنيسة معهم.

- لا، لماذا فكرت في أنني أريد الذهاب للكنيسة؟

- على ما يبدو أن الجميع هنا في حاجة للذهاب إلى كنيسة ما.

ضحكت على ملاحظته، ضحكة صغيرة، ابتسم بدوره وقال:

- وجهك لا يشبه وجوههم؟

- ماذا تقصد؟

- ابتسامتك جميلة ووجهك مشرق، عكس هذه الوجوه حولنا، منذ الصباح وأنا أقابل وجوها مكتئبة، ما بال الجميع هنا؟

ابتسمت، لم يصفها أحد بالجميلة منذ ثلاث سنوات، لم تتلق أي إطراء ولو عابر، ظلت ابتسامتها دقائق، قالت:

- مرحبا بك في مدينة العزلة!

- مدينة العزلة؟

- نعم، لنتقابل في المساء وسأحدثك أكثر.

- متى؟

- في التاسعة مساء هنا، لا تنس معطفك، ستهطل الثلوج.

- تبدين متأكدة؟

ابتسمت وأخذت كتابها وارتدت المعطف، دفعت الحساب وغادرت، لوحت له من خلف الزجاج وهي تفتح مظلتها.

٣

غادر المقهى بعدها، وتوقف المطر. ذهب رأسا إلى المنشأة، دقائق ويعرف عنوانه ومكان عمله، بدا الأمر غريبا على نحو مخيف، الأرقام والوجوه وفقدانه الذاكرة، حاول تذكر أي شيء دون جدوى. لا يشعر بكونه عاملا في مصنع، ولا يوجد ما هو مألوف في الشوارع، بدا تائها وتساءل عن سر الندبات في جسده، ثلاث عشرة ندبة، عدَّتها الفتاة في الصباح على جسده، قد يكون قاتلا أو نصابا، في النهاية عليه الاستسلام إلى ما تقرره الموظفة صاحبة الوجه المتجهم والتعيس، ستخبره من هو.

٤

وقتما كان ٢١١٢ يحاول تذكر من هو، كانت ٤٠٠١ ذهنها مشغولا بمعرفة من هو، حلقت أفكارهما معا في سماء المدينة القاتم. نظرت من نافذة مكتبها الصغير، المتكدس بالأوراق في كل ركن، تنتظر هطول الثلج. بعد قليل سيدخل عليها، الشخص الغريب، المألوف، صاحب

الرقـم المميـز، يسـتلم عنـوان منزلـه. بجانـب كتابـة تقاريـر المنتحريـن، تسـلم الأشـخاص الجـدد، والمنفيـون، عناويـن منازلهـم الجديـدة.

قابلـت في المكتـب الصغـير، ممثلـين مشـهورين ورجـال أعـمال ورجـال دولـة، وجميعهـم، فاقديـن الذاكـرة، معتقديـن أنهـم أبنـاء المدينة التعيسـة، عـدا ٢١١٢، لم يقتنـع أنـه ابـن المدينـة بعـد.

أمامهـا ثلاثـة عناويـن، أحدهـا في الشـقة المقابلـة لهـا، بالأمـس انتحـر زوجـان معـا في سـن الخمسـين، يسـكنان أمامهـا، لا تفتقدهـما، كانـا صامتـين كالعـادة، قليـلي الـكلام، هنـا لا تفتقـد أحـدا عنـد موتـه. قـررت إعطـاءه هـذا العنـوان، ليبقـى بقربهـا، ومعهـا في أغلـب الأمسـيات، راغبـة في تبـادل أحاديـث طويلـة مـع شـخص مـا، سـئمت الأحاديـث المقتضبـة والجمـل الصغـيرة، وتفتقـد إلى حـس الدعابـة قليـلا.

٥

قطعـت أفكارهـا ثـلاث دقـات عـلى بـاب المكتـب، رأتـه يقـف، يرتـدي بدلـة سـوداء ويحمـل كيسـا، بداخلـه بدلـة المصنـع الزرقـاء، ويضـع عـلى معصمـه المعطـف. وقـف حائـرا، وأشـارت إليـه بالجلـوس، مثلـما فعلـت قبـل سـاعتين، وانتزعتـه مـن ذعـره. قالـت:

- عرفت من أنت؟

- نعـم، لقـد وقـع حـادث قبـل أسـبوع، وتلقيـت ضربـة عـلى رأسي وفقـط، مجـرد عامـل في مصنـع للسـجائر.

- تبدو غير مصدق؟

- يوجـد خطـأ مـا، لا يوجـد شيء مألـوف مـما أرى، لقـد اسـتيقظت بالأمـس بجـوار منـزل وأنـا أرتـدي قميصـا، مـن أيـن جئـت، لا أصـدق المـرأة المتجهمـة.

أصبح كلامه مفككا، عاد الذعر ينتابه، قالت:

- لنتقابل مساء كما أخبرتك؟

- في المقهى؟

- لا سنخرج معا، أنت تسكن مقابلي.

- حقا؟ إذا تعرفين من أنا بشكل أفضل؟

- لا، كل إنسان في مدينتنا، لا يهتم بالآخر، لا تعرف جيرانك إلا حين موتهم، بسبب رجال الشرطة.

- تنتشر الجرائم؟

- حقيقة نحن مدينة بلا جرائم، إنها حالات انتحار.

أعطته المفتاح، وعندما مد يديه لأخذه أمسكت بها، نظرت في عينيه، وأخبرته ألا يقلق. اطمأن لفعلتها، شعر بيديها تربت على يديه، كاد يبكي، معزولا منذ استيقاظه، وسط بشر وجوههم جنائزية.

سحبت يديها، ومن النافذة خلفها، رأى الثلج يهطل أخيرا. مدت يديها تستقبل حبات الثلج الصغيرة، مثلما اعتادت في طفولتها، من نافذة منزلها. تقع النافذة خلفها مباشرة، تسمح ليديها بالهرب من جو الغرفة الخانق. قالت مبتسمة:

- أرأيت؟

هز رأسه مبتسما، تبادلا ابتسامات صغيرة، لا تليق بالمدينة الجنائزية. لقد شعرت بالسعادة في وجوده، شخص ما يبتسم، رغم منفاها الاختياري. قطع أفكارها وقال:

- كيف أعود إلى المنزل؟

- عند خروجك من هنا اذهب شمالا، ستجد محطة، وعند مجيء المترو، استقله، وعند قدوم شارع نيتشه غادر المترو وابحث عن المبنى رقم ٢.

- كيف أعرف الشارع؟

- سيهتف السائق في الميكروفون باسم كل محطة، ليس بعيدا لا تقلق.

صافحها ممتنا وغادر.

٦

راقبته من النافذة وهو يسير مبتعدا، ويتكوم الثلج على كتفيه، بدا ملاكا من بعيد. انقبض قلبها عندما ابتعد أكثر، بدا جزءا من الجميع، ببدلته السوداء، يختلف عنهم فقط في نظراته المستفهمة وفضوله للنظر إلى الوجوه والمباني، الوحيد من يحرك رأسه، الباقي ينظر للأمام. انتابها الحماس، أرادت الذهاب إلى المنزل ورؤيته، ستحكي له عن المدينة، وأنه لا يشبه الآخرين وجاء من مكان ما ستحاول معرفته.

فقط تريد معرفة، أين رأته من قبل؟

٧

شقة صغيرة مكونة من صالة وغرفة واحدة، ونافذة تطل على الشارع تقع في الصالة، وغرفة النوم بها سرير ودولاب صغير، دولاب فارغ، تساءل عن ملابسه قبل ضربة الرأس، وهل سيمضي أيامه ببدلة واحدة؟ في الكيس بدلة المصنع وبيجامة النوم. وجد تحت الأريكة في الصالة، صورة رجل وامرأة يوم زفافهما، صورة قديمة بالأبيض والأسود، ظن أنهما والداه، لا يشبهانه.

غير ملابسه ووضع رأسه على المخدة، شعر بدفء وإرهاق، مدينة مرهقة، مبانيها متشابهة، ما زال يشعر بالغرابة والأمل في انتهاء الأمر.

الفصل السادس

١

قال:

- من العار البقاء بلا مقاومة أو علاج.

يتحدث وهو يتحرك واضعا يديه خلف ظهره، تحرك النحات العجوز تجاه النافذة، يراقب ثلوج ديسمبر من النافذة، ويفكر في مقاومة الحاكم.

بعد انتهاء تمثال كارل ماركس، جاء إلى المدينة على فترات متباعدة، يصنع تماثيل أخرى لإرضاء غرور حاكم غريب الأطوار، يمنح الشوارع أسماء موتى، ويمنح الأحياء أرقاما. تسربت الشفقة إليه، بسبب مصائر سكان المدينة، وهو لم يشعر بالشفقة يوما تجاه أحد سوى نفسه، في لحظاته الحالكة. أفنى عمره في صناعة تماثيل تزين حدائق وقصور الأثرياء، اكتسب شهرة كبيرة، ويده الماهرة تصنع ملائكة وشياطين، وأجسادا عارية ونساء جميلات.

جاء إلى المدينة مرات يصنع تماثيل فلاسفة وكُتاب ومفكرين، طمعا في المبالغ المالية، حتى رغب في الاستقرار هنا، ومقاومة نزوات الحاكم،

رغب في إنقاذ الناس، أراد جعل لسنواته الأخيرة معنى حقيقيا، بعيدا عن منازل الأثرياء.

قوبل طلبه بالترحاب من الحاكم، ما زالت هناك تماثيل يرغب في إنشائها، منحه شقة صغيرة ومرتبا شهريا، ويتقابلان أسبوعيا يتحدثان عن التماثيل والثقافة، مقابلات تثير داخل النحات شعور الغثيان، يكره الحاكم ومشاريعه وأكاذيبه. بدأ يتجول كثيرا في المدينة، مدينة بلا سيارات، سوى سيارة الحاكم، السكك الحديدية تقطع جميع الشوارع، مبان متلاصقة بثلاثة أدوار وشقق صغيرة، وعشرات المصانع. رأى دور العبادة القديمة تتحول إلى متاحف لا يزورها أحد، متحف يعرض كتبا ذات طبعات قديمة، وصورا وتماثيل من أزمنة ليست بعيدة، وبقيت كنيسة واحدة وجامع واحد، على أطراف المدينة السكنية، تفصلان المصانع عن البيوت.

سمع الحاكم مرة يقول:

- سأجعلها مدينة ثقافية.

متباهيا، في قصره المطل على المدينة.

مدينة ثقافية دون أي قارئ أو سينما تعرض أفلاما جيدة، مدينة ثقافية هُدمت أغلبية مسارحها. يصادر الحاكم الكتب الجيدة إذا وجدت، ويعرض الأفلام المبتذلة، وحول المسرح الأثري العائد إلى منتصف القرن الماضي إلى منشأة العلاج النفسي وخدمة المواطنين وتحقيرهم أكثر. هكذا تدور أفكاره تجاه الرجل المتناقض.

على الأريكة وسط الصالة، جلس ثلاثة شباب، أحدهم لم يبلغ الخامسة عشر، لم تدق التعاسة أبوابه حتى الآن، واثنان آخران وصلا العشرينيات، بلا رغبة حقيقية في المقاومة، لكنهم يريدون فعل شيء، إنهم من عماله يتبعونه بأوامر الحاكم أثناء نحت التماثيل، وامرأة

قادمـة في المسـاء.

خلية صغيرة كافية ليبدأ المقاومة، لكنه لا يدري ماذا يفعل؟

يحـيره النـاس والمسـافات الفاصلـة بينهـم. وبـاء قاتـل ومدينة مستسـلمة لنـزوات رجـل واحد.

٢

يريـد النحـات العجـوز أحيانـا العـودة إلى العـالم الخارجـي، للرفقـة والحفـلات والتجـوال في أنحـاء العـالم. عجـوز ليبقـى بمفـرده في مدينـة بـلا رفقـة أو مشـاعر سـوى الحـزن، لكنـه يريـد المسـاعدة، ولعـن يومـا محـددا لا يذكـر تاريخـه، حـين تسربـت الإنسـانية والشـفقة إليـه.

٣

في مـكان لا يبتعـد عـن منـزل النحـات العجـوز، جلـس ٢١١٢ يسـتمع مندهشـا إلى قصـة ترويهـا ٤٠٠١، قصـة خياليـة مـا، ترويهـا امـرأة جميلـة بحـرارة لا تناسـب مأسـاوية القصـة، عـن مدينـة واقعـة في براثـن العزلـة الإجباريـة والأحـزان الأبديـة لآلاف الأشـخاص. بـدا لـه أن بجانـب العزلـة والحـزن المـوت بالخـارج يترقـب لحظـة انهيـار شـخص مـا يحتضنـه صاعـدا إلى السـماء.

قال:

- إذًا الموت هو العلاج الوحيد؟

- أو التعود، اعتاد الناس الأمر، كما ترى حولك.

- لا أرى سوى وجوه منهكة، وحزينة.

غـدا صباحـا، سـيذهب إلى مصنـع السـجائر، ويقبـض مرتبـا رمزيـا يصرفـه عـلى الغـذاء المعلـب والسـجائر الرديئـة، وتمـضي أوقاتـه جالسـا في

انتظـار المـوت، أو انهيـاره ويضـع حـدا لمأسـاته، قـال:

- لكنني أرفض الموت هكذا، وحيدا.

قالت:

- مصير واحد يتشاركه الجميع.

- ولكن من أنا؟

- أنت في المكان الخاطئ لتبحث عن ذاتك.

حـاول تذكـر جريمتـه، جريمـة شـنيعة مـا تفـرض عليـه مصـيرا أكـثر مأسـاوية مـن البقـاء في السـجون.

قالت:

- على الأقل هنا تتحرك بحرية.

- في سجن ضخم؟ لا أعتقد هذا.

نظـر عـبر زجـاج النافـذة إلى الشـارع، كل مقاهـي المدينـة، محاطـة بالزجـاج، بداخلهـا أنـاس يفكـرون بأحزانهـم. توقفـت الثلـوج، قـال:

- ما جريمتك؟ لا تبدين من أهل المدينة؟

- أنا بلا جريمة، اخترت القدوم إلى هنا.

- لماذا؟!

- كرهـت العـالم الخارجـي، كرهـت الزيـف الـذي يغلـف كل شيء، حتـى الأحاديث.

- هنا لا توجد أحاديث مزيفة حتى، على ما يبدو.

- نعم، وهذا أفضل من الكذب.

صمتت قليلا ثم قالت:

- الصمت، والجمل القصيرة، أفضل من الكذب.

قال:

- ما سبب الحزن والوحدة؟

- يقولون الإنترنت عزل الناس عن بعضهم وجعلهم آلات، هكذا يقول الأطباء، أتذكر الإنترنت؟

- قليلا، بعد استيقاظي تذكرت بعض الأشياء، إن الحياة سهلة بالخارج، لكن هل هذا السبب الوحيد للوباء؟

- لا نعرف بعد.

٤

خرجا من المقهى معا، في طريقهما إلى منزل النحات العجوز، قال في نفسه "الموت يبدو مصيرا رائعا مقابل البقاء في هذه المدينة".

قررا المشي، يختلس النظرات إليها، تفاصيل وجهها الجميلة وجنتيها الحمراوين، كأنهما ثمرتان قبل موسم الحصاد، تمتلك فما صغيرا، ونظارتها لا تخفي جمال عينيها، بدا وجهها طفوليا، تساءل أي مأساة دفعتها للقدوم إلى هنا. قطع الصمت بينهما قائلا:

- هذا يعني أنك الإنسانة الوحيدة التي لديها ابتسامة جميلة في مدينة ضخمة؟

قالت ضاحكة:

- نعم، وعليك التعايش مع الأمر.

منذ رؤيته لا تتوقف عن الابتسام، ابتسمت اليوم أكثر من

ابتسـاماتها جميعـا خـلال ثـلاث سـنوات مضـت، راقهـا الأمـر كثـيرا، أن تبتسـم، قالـت:

- اليوم سنعرف من أنت؟

- كيف؟

- بعد زيارة النحات، سنذهب في مشوار طويل.

- ومن هذا النحات؟

- ستعرفه، اقتربنا من منزله.

هواء ديسمبر، جعله في حنين قاس، لكنه لا يتذكر لمن.

الشـوارع شـبه خاليـة، الهـواء البـارد يلفـح الوجـوه، تخنقـه المبـاني المتشـابهة، والتماثيـل المنتـشرة، قـال:

- أين السيارات؟

قالت:

- ممنوعة.

- الأشياء الممنوعة كثيرة هنا؟

- رغبات الحاكم.

قال باستغراب:

- رجل مجنون.

- ربما.

نوبـات حنـين لا تتوقـف تهاجمـه، والمبـاني المتشـابهة تثـير بداخلـه اختناقـا، ومـا زال يحـصي التماثيـل في الميادِيـن، عـشرة تماثيـل لرجـال لا

يعرفهم، وشوارع طويلة، وفتاة جميلة، تسير بجانبه، لا تبدد حنينه أو اختناقه.

٥

تمشي بجانبه راغبة في انتزاع يديه من جيبي معطفه، والتشبث بهما، تركل الثلوج بقدميها، تلهو، تستعيد ذكريات طفولتها وسط أبويها المنفصلين، كانت تلهو في الثلوج، مرحة، لا تعرف المستقبل، وكلمات كالوحدة والحزن تسمعها دون اهتمام، لا تثير بداخلها شيئا، كلمات مبهمة، لطالما استخدمتها والدتها في منزلهم، قبل أن ترحل في يوم مشمس، تتذكر اليوم جيدا، يوم بكاء والدتها المرير وتدخين والدها سيجارة تلو الأخرى وهي جالسة لا تفهم، تلون بعض الحيوانات في كتاب. تكره الصيف والعالم.

جاءت إلى مدينة محاطة بسياج وهمي من العزلة، راغبة في نسيان العالم، وسط ناس لا تهتم، لكنها ما زالت تبحث عن الاهتمام، ووجدت ضالتها في رجل فاقد للذاكرة، وجهه مألوف، صوته حاد، قالت بلا مقدمات:

- جئت هربا من الخارج.

نظر إليها، وقال:

- لماذا؟

- يلفظ العالم الخارجي من يريد السعادة، عالم من الحمقى والمزيفين، أردت السعادة.

- لكن هنا؟ لا توجد سعادة.

قالت وهي تركل الثلوج، كأنها تدافع عن قرارها:

- لكنه بلا زيف.

وعادت للقول:

- اقتربنا.

شارع طويل تضيئه العمدان المتباعدة في نظام، وجميع المنازل معتمة، إلا نافذة واحدة، نظرا إليها معا، قال:

- هناك شخص ما زال مستيقظا، يمارس عزلته.

- نعم، الليل جحيم هؤلاء الناس.

٦

النافذة الوحيدة المضاءة في الشارع، يراقب رجل عبرها الضوء المعتم القادم من الخارج، مستلقٍ على سريره ينتظر الموت، طلب سيجارة من زوجته. شخصت إصابته بالسرطان قبل ثلاثة أشهر، رفض تلقي العلاج، منذ بدء الوباء يستسلم الناس للأمراض للموت البطيء، الموت الأخير، الناس يموتون مرات ومرات، وكل شخص يحمل على عاتقه أحزانا تكفي جميع البشر. لذلك، ترك ٣٥٠ المرض ينخر في جسده المنهك. يبلغ عمره خمسة وثلاثين عاما، يعرف أن العلاج ينتصر أحيانا على السرطان، لكنه رفض منح دكتور ما، الظفر بانتصار على حسابه، ليستمر هو في حصد الهزائم كل ساعة، هزيمة أخيرة معلنة، وجسده مسجى داخل تابوت أفضل من هزائم متكررة لا يعرفها أحد. يعيشها سكان المدينة أيضا، يعرف هذا ويدركه، فكل إنسان يعيش معركته الخاصة لكن تختلف من شخص لآخر.

الألم المبرح منحه بعض الراحة، يفكر في أوجاع الرأس والصدر وينسى التفكير في أحزانه، التي لا يعرف أغلبها. أمسك يد زوجته الجالسة قربه، تحاول الاهتمام به، ودائما تفشل، مشغولة بأحزانها، على الأقل

سيجد من يسير في جنازته، هناك جنازات لا يسير فيها أحد، سوى حاملي النعوش الأربعة. رأى في خياله النعش يسير في طريقه إلى المقابر، أربعة يحملونه وزوجته تسير بالخلف تبكي، تبكي أحزانها هي. قال لزوجته:

- مصير مؤلم؟

- الرب يريده، ربما كنا على معصية.

- الرب رحيم.

مع كل سيجارة يزداد الألم، وزوجته ساهمة، يعرف أنه في حال موته ستدفنه وتذهب إلى العمل، قال:

- الوباء جعلنا بعيدين عن بعضنا بعضا، أتذكرين كيف كنا؟

- نعم، لكن هذا لا يثير بداخلي أي سعادة.

- طوال عشر سنوات لم نتحدث هذه المدة!

قالت، بابتسامة حزينة، مصطنعة:

- عشر سنوات في صمت.

- لماذا تأخر الموت؟

- لا أعرف، لكنه سيأتي، لا تقلق.

رغبة عارمة في البكاء تجتاحه، وشعر فجأة برغبة في احتضان زوجته الجالسة قبالته في وجوم، أمسك يديها وقال:

- أنا أحبك.

٧

قال ٢١١٢ للنحات العجوز:

- ما اسمك؟

- الأسماء بلا أهمية، يمكنك تسميتي ما شئت لن أعترض.

- أريد اسمك الحقيقي؟

قال النحات ضاحكا:

- أدولف هتلر.

- حسنا، يا هتلر، ماذا نفعل هنا؟

- نقاوم؟

- من؟

- الحاكم المغرور، مدعي الثقافة!

تتابع ٤٠٠١ الحديث باهتمام، والثلاثة شبان تراودهم جميعا، رغبة في النوم، قال النحات:

- نوزع المنشورات؟

قال ٢١١٢، مبتسما:

- منشورات في زمن الإنترنت؟

قطعت ٤٠٠١ حديثهما وقالت:

- لا يوجد إنترنت هنا، ممنوع أيضا.

- بأوامر الحاكم؟

- بأوامر الجميع، يعتقد الأطباء أن الإنترنت أقوى سبب للوباء، جعل الجميع في عزلة، فرضوها على أنفسهم.

هز ٢١١٢، رأسه وقال:

- أنت تحبين المدينة هكذا، وتعيشين فيها؟ لماذا ترغبين في التغيير والمقاومة!

- يجب تنحية رغبتي بعيدا، الناس هنا في حاجة للعلاج الحقيقي والمقاومة، أحوالهم صعبة وعلى شفا الانقراض في سنوات ليست بالبعيدة.

الشبان الثلاثة ناموا نوما عميقا على الأريكة، كل واحد منهم يسند رأسه على كتف الآخر، والنحات العجوز ما زال يتحرك، واضعا يديه خلف ظهره، يبحث عن أفكار، بيأس.

قطع ٢١١٢ الصمت وقال:

- نشوه التماثيل؟

قال النحات ممتعضا:

- كيف؟

- بالأقلام مثلا.

- لكنها تماثيلي؟

- لكنك تشارك في صناعة مجد حاكم مغرور!

كأنه اقتنع بسرعة، هز رأسه موافقا وقال:

- متى نبدأ؟

- من الليلة.

- والمنشورات؟

قالت ٤٠٠١:

- لن يقرأها أحد وأنت تعرف ذلك جيدا.

عاد ٢١١٢ يقول:

- والشرطة؟

قالت:

- إنهم مجموعة من الأغبياء، رجال الشرطة الحقيقيون، يعيشون في عزلة، ويعملون في المصانع. الموجودون مجموعة من المرتزقة الأغبياء.

اقتربت الساعة من الثانية عشرة، رغبت ٤٠٠١ في الرحيل للحاق بموعدهم، وسيبدأ النحات العجوز في مباشرة عمله، في تشويه تماثيله هذا المساء، ويصنع غيرها في الأيام القادمة، ما زال تحت رغبة أوامر الحاكم.

٨

شرفة كبيرة يجلس وسطها الحاكم، يراقب مزهوا مدينته تنعم بالسكون، يسهر على راحة تماثيله، عشرات التماثيل المنتشرة وعدة متاحف ومكتبة ضخمة لا يزورها أحد.

فاز باليانصيب كما يردد أحيانا وهو وحده، مدينة لا تقاوم وأشخاص شبه أموات، قراراته لا تلاقي اعتراضا، ولا يرفع أحد يده مستفهما، بعد موت الجميع هنا سيحضر شعب جديد، أكثر سكونا ورغبة في العيش، أو سيترك المدينة خالية تسكنها تماثيله، وتبقى شاهدة

على ثقافته وعظمته الأبدية، سيجعل اسمه في تاريخ المثقفين، في زمن اندثار الثقافة، وانتصار الواقع الافتراضي. فكر في مصير والده ووالدته، دخلا التاريخ، لكن من الخلف، حاكم ثار ضده أبناء المدينة، سميت ثورة القهوة، يسخر التاريخ من والده.

يتمنى فناء هؤلاء الناس، رغم المكاسب المتحققة في خزينته. يكرههم كرها خالصا، يحمل ضغينته معه أينما ذهب. المدينة في سبات عميق، ليلة شتوية لعينة، يكره الشتاء أيضا، في شبابه كانت مدينة لا تنام، لا ينال السأم منها، هز رأسه مبتسما بشماتة لما آل إليه الحال.

ينتظر موت العجائز، المواظبين على الذهاب إلى الكنيسة والصلاة في الجامع، ليحول الكنيسة والجامع، آخر ما يدل على وجود الرب في المدينة، إلى متاحف أخرى، قال بصوت عالٍ:

- أيها الخونة، الله لا يهتم بكم.

٩

قال ٣٥٠ لزوجته:

- سأفتقدك!

يشعر بزوجته وقربها، كأن الشفاء أصابه وهو على سرير الموت يلفظ أنفاسه الأخيرة. بكى متمتما بكلمات عدة، لا تفهمها زوجته، فهمت فقط سأفتقدك، وقع الكلمة غريب عليها، لم تسمعها منذ سنوات، قالت:

- لا تبك.

قال باكيا:

- إنني لا أشعر بالوحدة الآن وأريد احتضانك.

ظنت زوجته أنها هلوسات الموت الأخيرة، ولا تدري ماذا تفعل؟

تركتـه يبـكي ناظـرة إليـه باسـتغراب يشـوبه قلـق، حتـى كـف عـن البـكاء فجـأة، ونظـر إلى السـقف، ومـات. أغلقـت عينيـه، وأشـعلت سـيجارة وقالـت:

- لترقد في سلام.

وخرجت إلى الصالة الصغيرة، تخيط فستانها الأسود الجديد.

١٠

إنـه وبـاء حـزن ووحـدة، لكنـه لا يجعـل المـوت شـاعريا أكـثر أو مدعـاة للحـزن أكـثر. بـدا المـوت للمحتضريـن، كخـلاص أبـدي مـن لعنـة الوحـدة والحـزن، وللأحيـاء أقربـاء الميـت، أصبـح المـوت رحمـة بهـم، ومصـير الميـت أفضـل مـن مصيرهـم، والجميـع ينشـغل فقـط بأحزانـه، ويبقـى في عزلتـه داخـل السـياج الوهمـي، لمتاهـات عقلـه الحزينـة، غـير القـادرة عـلى الابتسـام وقـت تذكـر الأوقـات الجيـدة، فقـط البـكاء عـلى ذكرياتهـم الحزينـة، وتذكـر الطفولـة بحنـين قـاس والتعايـش مـع الحـزن، حتـى يـأتي ميعـاد موتهـم.

الجميـع عـلى شـفا الانتحـار، لكـن خوفـا غريزيـا وعلاجـا مـا يبعدهـم عنـه، بعضهـم تنهـار مقاومتـه وينتحـر، يتغلـب عـلى الخـوف والأدويـة. لفـظ ٣٥٠ أنفاسـه الأخـيرة قـرب زوجتـه، وأخـيرا، فارقـه إحسـاس الوحـدة، لكنـه بـكى بهيسـتيريا لأنـه يمـوت، مصـير مفجـع آخـر يضـاف إلى مصائـر أهـل المدينـة.

تخيـط زوجتـه الفسـتان الأسـود، بصـبر انتظـار زوجهـا لموتـه عـلى مـدى ثلاثـة أشـهر، ولا تشـعر تجـاه جثمانـه في غرفـة النـوم، بـأي نـوع مـن أنـواع الشـفقة والحـزن، فقـط أحزانهـا ووحدتهـا. عاشـا معـا عـشر سـنوات، لم يتبـادلا سـوى جمـل قليلـة، كان غريبـا عنهـا. في الصبـاح تتصـل بالشرطـة،

ويذهـب الرجـل الميـت في غرفـة النـوم إلى مثـواه الأخـير، قـررت السـير في جنازتـه احترامـا لسـنواتهما معـا، وبعدهـا تذهـب إلى العمـل، في مصنـع الأحذيـة، وفي الليـل يصبـح السريـر لهـا وحدهـا، لتعـاني في أحزانهـا الأبديـة ورغبتهـا المؤجلـة في المـوت.

الفصل السابع

١

نامت ٣٤٩ زوجة ٣٥٠ وهي تخيط فستانها على الأريكة. والحاكم على سريره يستعد للنوم، يفكر في كونه الحاكم الأكثر حظا في التاريخ، يحكم مدينة مستسلمة لا تحتاج إلى قمع أو سجون أو خوف من توابع قراراته. وأدولف هتلر، النحات العجوز، أحب اسمه الجديد وقد مُنح له عن طريق الحظ، لكنه قرر الاحتفاظ به رغم ما يرتبط بالاسم من مجازر وويلات أصابت البشرية، وعمل على إيقاظ الشبان الثلاثة لتنفيذ أول خطوات المقاومة في المساء ذاته، بتشويه تماثيله.

خرج ٢١١٢ و٤٠٠١ إلى الشارع الرئيسي، شارع كبير يقسمه خط السكك الحديدية، وتصب جميع الشوارع الفرعية فيه، وقفا على المحطة في انتظار الترومواي الأخير، للحاق بموعدهما. الهواء بارد وعاصف والشوارع خالية، دخلت المدينة في سباتها العميق. النوم والعمل المنهك، أفضل أصدقاء سكان المدينة التعساء، يستريحون من عناء أفكارهم، يذهب الجميع إلى النوم في ساعة مبكرة، الثانية عشرة أو قبلها، ميعاد غلق المقاهي والحانات. جاء الترومواي الأخير خاليا تماما، ثلاث عربات، ركبا في العربة الأخيرة متجاورين. وفيما يقطع الترومواي الطريق ببطء، يرى ٢١١٢ ذكريات مبهمة وبعيدة، كأنها

تخص شخصا آخر لا يعرفه، يراقب المباني المتشابهة وعمدان الإنارة المضيئة المتباعدة في نظام، وعلى مداخل الشوارع، وفي منتصف الميادين أشباح وحيدة تقف.

حاول التركيز على ذاكرته، ما زالت المشاهد بعيدة مبهمة، صور باهتة تمر سريعة، يحاول التقاط صورة أو مشهد والتجول فيه. رأى في متاهات الذاكرة، أوراقا متناثرة على مكتب صغير داخل غرفة شبه معتمة، وأعقاب سجائر تفرش الأرضية، وموسيقى لا يعرفها تنساب في الخلفية. وطفلة صغيرة تبتسم، تصفق بيديها الصغيرتين.

أخرجته ٤٠٠١ من متاهات الذاكرة، قائلة:

- لقد وصلنا.

نهاية الخط، المصانع الكبرى صامتة مظلمة، لا توجد أضواء، نزل معها ومع سائق التروماي الشاب. اختفى الشاب في الظلام الدامس، واخترق معها المصانع الواقعة على جانبي طريق غير ممهد، خمس دقائق من المشي قبل الوصول إلى المصنع الأخير، قابلا الأشجار الكثيفة، تصطف بجانب بعضها، وبعد عبور الأشجار وجدا سيارة.

فتحت السيارة وأحضرت هاتفا نقالا، لا يساعده استغرابه على شيء، قال:

- تملكين هاتفا وسيارة؟

قالت:

- نعم، في حالة أردت الرحيل.

- والشرطة والحاكم؟

- ما زلت لا تفهم؟ لا توجد شرطة بالمفهوم الحقيقي، مجموعة

بائسة، في حاجة للمال والحاكم يعتمد على استسلام الجميع، لا أحد يهرب من المدينة، لم تسجل حالة فرار واحدة.

قال:

- على الرغم من عدم وجود سياج؟

- يوجد سياج، لكنه وهمي ولا يرغب الناس في العبور من خلاله.

تحدثت في الهاتف مع شخص ما، وركبا السيارة وانطلقا عبر الغابة في طريق غير ممهد، وعلى مفترق طريق، انتظرا قدوم الشخص، قالت:

- سيأتي شخص ومعه مظروف، سنعرف من أنت.

- ببساطة؟

- أبي صاحب نفوذ كبير ويلبي طلباتي كاملة.

صمت وهواء بارد، وأصوات الأغصان تصنع موسيقى مرعبة لا تخيف أحدا. قالت:

- في الماضي كان هذا الطريق يستخدمونه للذهاب إلى البحر.

- يوجد بحر؟

- نعم سنذهب إليه. أحيانا آتي وحدي، أراقب النجوم.

قال:

- دائما وحدك؟

قالت بحزن طفيف:

- نعم.

حدثته عن علاقتها بالنحات العجوز، سلمته مفاتيح شقته وتحدثا قليلا، وأخبرها عن رغبته في مقاومة الحاكم، رب عمله، وإنقاذ المدينة. حدثها بنبرة حماسية تليق بشاب في مقتبل عمره، ووافقت على سبيل التغيير، والحديث مع شخص ما. عرف أنها ليست من المدينة، بسبب وجهها أيضا وابتسامتها. قال ٢١١٢ ضاحكا:

- وجهك يفضحك!

- ما باليد حيلة.

جاء الرجل الغريب، يحمل في يديه مظروفا كبيرا، يحوي داخله قصة رجل فاقد للذاكرة وأسباب نفيه إلى المدينة الأكثر تعاسة، تحدث مع الفتاة قليلا ورحل. وعادا إلى السيارة وانطلقت في الطريق إلى البحر.

٢

كان كاتبا يخشى اندثار الأوراق برغبة طفولية، ربما أراد من يقرأ له، يقرأ كلماته عن طريق الأوراق، الكتب المحمولة في اليد وليس الكتب الإلكترونية البغيضة، عبر الشاشات الصغيرة. في جعبته أربع روايات وثلاث محاولات انتحار، وثلاث عشرة ندبة في أنحاء جسده، للتغلب على الألم النفسي بسبب وفاة طفلته، وعزلته داخل غرفته شبه المعتمة.

اكتملت بعض المشاهد في ذاكرته قبل فتح المظروف، ما زالا على الطريق غير الممهد، يسيران ببطء تجاه البحر، يشتم رائحته، رائحة الملح.

٣

تجول داخل ذاكرته، يلتقط مشاهد عدة من حياته.

امـرأة طويلـة بشرتهـا قمحاويـة، عينـان ضيقتـان وأنـف طويـل، تمـضي وقتهـا في التجـول بعصبيـة داخـل منـزل صامـت وكئيـب، منزلـه السـابق، وصـورة معلقـة كبـيرة في الصالـة لطفلتـه ذات السـنوات الخمـس، غرقـت في حـمام السـباحة لانشـغال المـدرب بهاتفـه، يراسـل أصدقـاءه ضاحـكا غـير منتبـه للأطفـال في حـمام السـباحة. غرقـت طفلتـه وتحولـت إلى روابـط عـدة يتناقلهـا النـاس عـبر مواقـع التواصـل الاجتماعـي، للتحـدث عـن جريمـة المـدرب وتأثـير التكنولوجيـا عـلى حياتنـا.

«المـوت يترقـب سـهواتنا في زوايـا معتمـة، يختارهـا بعنايـة في كل الأمكنـة، حتـى المضيئـة منهـا، تجـد ركنـا صغـيرا معتـما، يناسـب الحـشرات، لكـن المـوت بـلا جسـد، يسـتطيع الاختفـاء في كل الأمكنـة».

مفتتـح روايتـه الأولى وقـد أهداهـا إلى طفلتـه الصغـيرة. بقيـت طفلتـه في ذاكرتـه وذاكـرة زوجتـه، مـع غـرق طفلتـه فقـد زوجتـه أيضـا، كل منهـما يعيـش في تعاسـته الخاصـة.

كئيبـا ووحيـدا يكتـب الجملـة تلـو الأخـرى، لا تزعجـه خطـوات زوجتـه في الصالـة وبكاؤهـا، وكلماتهـا الغاضبـة تجـاه العـالم والـرب. اكتشـف مـن خـلال المشـاهد داخـل ذاكرتـه، أنـه كان يعيـش في عزلـة أبنـاء المدينـة التعيسـة وأحزانهـم، وقدومـه هنـا ليـس بمنفـى، أنـه واحـد منهـم، لكنـه يعيـش عـلى بُعـد مئـات الأميـال.

٤

في العـالم الخارجـي ملايـين التعسـاء، لكنهـم لا يعيشـون في مـكان واحـد، ولا تجمعهـم مدينـة واحـدة، يجمعهـم فضـاء إلكـتروني والـكل يمـارس عزلتـه، ويكـذب بشـأن السـعادة والأمـل. مفهـوم السـعادة الحقيقيـة قـارب عـلى الاندثـار، أقنعـت التكنولوجيـا النـاس أن السـعادة أبديـة، وبـدأ كل إنسـان يراقـب الآخـر، يحسـده عـلى سـعادته في عـالم اختلـط فيـه الكـذب

والزيف بالتعاسة المتوارية خلف الكلمات والصور، عوالم قاتلة.

قطعت ٤٠٠١ أفكاره، وسحبته من متاهات عقله، قائلة:

- لقد وصلنا.

قررا جمع الأخشاب، وإشعال النار.

صنعا حلقة دائرية من الأخشاب، أحضرت بطانية من سيارتها، وأشعل هو النار، حلقة متوسطة من النيران للتدفئة. وجلسا في الوسط معا يراقبان من بعيد، أضواء مدينة ما زالت مستيقظة على الجهة الأخرى من البحر، عالم يسير بسرعة لا يتوقف، ويبتلع الجميع. وخلفهما الصمت المخيف، العائد إلى بدايات الكون، حين لم يكن على الأرض أحد، ولا صوت سوى صوت حفيف الأشجار.

٥

أرادت فتح المظروف المدون على أوراقه قصة رجل، اعتبرته سريعا فارس أحلامها في مدينة بلا فرسان. يدق قلبها عنيفا، أرادت معرفة من هو، تمنت ألا يكون قاتلا أو رجلا سياسيا فاسدا، ربما كان مختلس أموال، عصفت الأفكار بها. في طريقهما إلى الشاطئ المنسي، تجلس خلف المقود ساهمة في الرجل الجالس بجوارها، بدا هادئا طوال الطريق فيما تمزقها الأفكار والخيالات. وقعت في غرامه، أول رجل يجعلها تبتسم مرات ومرات خلال يوم واحد، دون اصطناع ابتسامة مزيفة، حتى في العالم الخارجي، هناك حيث الأضواء التي لا تنطفئ، لم يجعلها رجل تبتسم هكذا.

قبل فتح المظروف، أمسك يديها، توجست، قال:

- لقد عرفت من أنا!

انقبض قلبها. ترك يديها ونظر تجاه الأضواء الساطعة. انتظرت

اعترافاته وصبرها ينفد، بمرور الثواني، لكنه ما زال ساهما إلى الجانب الآخر، ولمحت على وجهه، تعاسة أبناء المدينة، التعاسة المألوفة، على الوجوه المنهكة.

قال:

- أنا كاتب!

- كاتب؟!

- كاتب روايات ناجح، تحقق كتبه المبيعات.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة واسعة، تبددت سريعا بسبب التعاسة البادية على وجهه، قالت:

- كيف تعرف؟

- تذكرت.

- وسبب وجودك هنا؟

- لأنني خطر على نفسي.

- كيف؟

- حاولت الانتحار ثلاث مرات.

عندما رحلت والدتها خلال يوم مشمس وحار، بكت كثيرا وصعدت إلى غرفتها، في الدور الثاني من منزل مكون من دورين، وقفزت من النافذة، لأن والدتها رفضت توسلاتها بالبقاء معها، كانت في الثانية عشرة. من النافذة قبل أن تقفز، بشجاعة لم تعرفها مرة ثانية، راقبت والدتها تبتعد. القدم اليمنى انكسرت، تركت ندبة صغيرة، وفي قلبها ندبة لا يمحوها الزمن، ندبة رحيل والدتها.

قالت:

- لقد جربت الانتحار مرة، يوم رحيل والدتي ونجوت.

- هل أنت سعيدة بنجاتك؟

- لا أعرف، ربما نعم وربما لا، خصوصا أنه تنقصني الشجاعة لمحاولة أخرى، وأنت؟

- أزداد تعاسة مع فشلي، لا أستطيع التجاوب مع العالم، خصوصا في ثوبه الحديث.

- أكره العالم.

- ليس بقدري!

٦

مشهد آخر اكتمل في ذاكرته، مشهد اعتراف زوجته بالخيانة، تحدث عن الأمر لـ٤٠٠١، كأنه يعترف في الكنيسة بأخطائه هو.

بعد وفاة الابنة بأربعة أعوام، خانته زوجته. اعترفت باكية تحت وطأة الذنب، وخوفها من عقاب الرب، خانته لأنها أرادت فقط شخصا ما يخبرها أن الأمور ستصبح جيدة، يطمئنها قليلا، وهو، ٢١١٢، بعد وفاة الطفلة بدا بعيدا، رغم وجودهما تحت سقف منزل الأحلام، في إحدى الضواحي الهادئة.

يعمل في بيع أشياء لا يحتاجها الناس، يجبرهم بمهارة على الشراء، وإرضاء غرورهم، وإرضاء النزعة الاستهلاكية بداخلهم، ومنافسة أقرانهم من الجيران والأصدقاء، يبيع أشياء لن تحدث فرقا في حياة أحد، لكنها ساعدته على الترقي الاجتماعي، وسط عالم يقدس المظاهر.

اشترى منزلا في الضواحي، يطل على حديقة أمامية وجراج سيارة،

وملعب صغير وبنى لاحقا منزلا لكلب قبل اقتنائه كلبا، ليبدو المنزل مثاليا تسكنه أسرة سعيدة. وسيارته الفارهة تقطع الشوارع في خيلاء، تثير حسد الجميع. تزوج امرأة جميلة وانهمك في العمل، في استغلال الناس، ودائما ما كان يشعر بأن شيئا ناقصا، حجرا أخيرا للسعادة يجب وضعه، لكنه لم يعرف أين؟ ومن حياته القديمة، حافظ فقط على القراءة ويكتب أحيانا في غرفة مكتبه، قطعا متناثرة، نصوصا غير مكتملة.

عند وفاة طفلته تهاوت حياته بسرعة فائقة، لأنها على حد قوله، كانت سعادة مزيفة، قائمة على إرضاء الآخرين، واكتشف متأخرا بسنوات أنه يكنّ لزوجته الاحترام، بلا حب.

لذلك وقت اعترافها بخيانته، تلاشى غضبه سريعا، احتضنها واتفقا على الانفصال، وتخلى راضيا عن منزل الأحلام، اصطحب معه صورة طفلته المعلقة في الصالة، وكتبه، ونقل مكتبه إلى منزل صغير. وفرت عائدات بيع الكتب بعض المال، تخلى عن الإنترنت والأجهزة الحديثة، عاش معزولا لا يزوره سوى قلة من الأصدقاء القدامى.

قال:

- عشت على الإنترنت حياة اجتماعية مزيفة، انهارت سريعا أيضا.

كل شيء في هذا العالم معرض للانهيار بسرعة فائقة، في لمح البصر يتهاوى ما نصنعه طوال سنوات، لأنه غير حقيقي. وفاة الطفلة وضعته في مأزق، شعر بالذنب بسبب موافقته على دروس السباحة لطفلة صغيرة، ليتساوى مع جيرانه وأصدقائه، يكره السباحة وكذلك كانت طفلته تكره السباحة.

٧

المواساة لا تفيد، تهز رأسها بأسى باحثة عن كلمات لائقة لما يقوله دون جدوى، لا توجد كلمات قد تساعده.

قال:

- أكثر ما أحببته في هذه المدينة، خلوها من السيارات والازدحام.

قالت:

- فعلا، هذا مريح للأعصاب.

- لكنها مدينة مثالية للموت، وليس للحياة، للموت بصمت.

تسرب الدفء إلى أجسادهم، اقترب منها وقبلها قبلة طويلة، وضع يديه حول خصرها، وخرج من متاهات الذاكرة.

انتصبت واقفة، قائلة إنها تريد رقص رقصة بدائية قرأت عنها سابقا.

تدور حوله ببطء، يتابعها بعينيه مبتسما، تتخلى عن الفستان الأسود الطويل، ترتدي أسفله ما يشبه التي شيرت يصل إلى ركبتيها، خلعته وبقيت ملابسها الداخلية. تدور حوله وهو ينتظر خطوتها الأخيرة، تهز جسدها بوتيرة سريعة أحيانا وأحيانا تبطئ خطواتها. خلعت الصدرية البيضاء وأخفت نهديها بيديها، وتركته حائرا، رأت في عينيه نظرات الشهوة والحب. الرقصة والتعري لأجل رؤية عينيه، افتقدت هذا كثيرا، لم تقرأ يوما عن رقصات بدائية، اخترعتها للتو. فتحت يديها، كشفت عن نهدين متناسقين بلا تهدل، معلقين بثبات على صدرها، يهتزان لأقل حركة. في عقله يبحث باتريك عن التعبيرات الأدبية كأنه يكتب قصة، لكن عقله كان حائرا ولا يريد اختراع تعبير جديد يناسب نهديها المستديرين. هي ترقص والنيران ترقص على جسدها، وتخلت عن القطعة الأخيرة. جسدها رفيع من الأعلى، ممتلئ نزولا، رآها

فاتنة وجميلة، ذات بطن مسطح، وأرداف أخاذة.

أراد قول بعض الكلمات وهي تهتز دافئة، داخل حلقة النيران، خانته التعبيرات وتركته فريسة للمرأة الجميلة الراقصة. رأت في عينيه ما أرادت، وانتظرت هي خطوته، وتساءلت، هل أحب جسدها؟

سحبها من يديها إلى أحضانه عارية، قبل أن يتعرى، وداخل حلقة النيران البدائية كانا معا والعالم خارجا، الأضواء الساطعة أمامهما والصمت خلفهما، وهما في المنتصف كأن العالم يتمحور حولهما.

٨

وسط شوارع مدينة العزلة، الهادئة، يسير النحات العجوز رفقة ثلاثة شباب ناعسين، المدينة صامتة وخطواتهم تثير جلبة، من تمثال لآخر يرسم النحات العجوز، على وجوه تماثيله أشياء مضحكة، هذا كل ما يمكنه القيام به، قال للشبان:

- أنا عجوز للقيام بهذا.

لكنه فعل صغير يقلق به منام الحاكم، يشعر بالسعادة، يقود المقاومة ضد الحاكم، ويتخفى على هيئة صديق مخلص، يصنع التماثيل ليعبث بها لاحقا.

بدا طفلا صغيرا، أحضر أبواه لعبة جديدة، يلعب بها.

الفصل الثامن

١

فيما مضي كانت المدينة مثار إعجاب الجميع، مدينة ثائرة يعج تاريخها بالثورات، وما زالت مقابرها تحمل شواهد قبور ثوار ماتوا قبل سنوات طويلة، مئات السنوات، وبقيت شواهد القبور شاهدة على أمجادهم، فربما حاول أحدهم تزييف التاريخ. عاشت المدينة بعيدا عن الصراعات الطائفية، على مر الأزمنة، يمكنك القدوم إلى هنا وبناء معبدك الخاص، لن يزعجك أحد، ستتأقلم سريعا، أحب الناس بعضهم.

مدينة متفردة بذاتها، هزمت الظلم.

لم تكن مدينة الأحلام، يوجد ظلم في أي مكان يسكنه الإنسان، مدن الأحلام توجد في عقول الحالمين، لكن بازدياد الظلم يثور الجميع. في عصور الإنترنت ازدادت المسافات بين الناس، بسبب التقارب الاجتماعي الخادع للإنترنت. أراد الناس أكثر، عصفت بهم الأحلام الجديدة، السيارة والمنزل والثراء السريع، حقق بعضهم ما قيل إنها السعادة، المنزل الضخم والسيارة، قبل أن يجرف الحاكم جميع المنازل، ذات الأدوار الواحدة والحدائق وباع جميع سيارات أهل المدينة خلال سنوات

العزلـة.

احتـار الأطبـاء النفسـيون وعلـماء علـم النفـس في تفسـير مـا حـدث، الإنترنـت المتهـم الأكـبر، يجعـل الكآبـة تتـسرب بداخلـك وأنـت غافـل، والتعاسـة تحتـل ركنـا أساسـيا في حياتـك، تريـد إيهـام أكبر عـدد مـن النـاس أنـك سـعيد، تغفـل العلاقـات الاجتماعيـة الحقيقيـة، وتبنـي صداقـات عـلى مواقـع افتراضيـة. ازداد الظلـم والاسـتعباد، امتلـك عـدد قليـل مـن النـاس أمـلاك المدينـة ومصانعهـا والمحـلات الكـبرى. والجميـع يعيـش في غفلتـه ينظـر عـبر الشاشـات الصغـيرة.

امتلـك كل إنسـان تقريبـا أحـلام الـثراء السريـع. عـلى الإنترنـت تشـعر بالتعاسـة، في حـال رؤيـة أشـخاص سـعداء أكـثر منـك، يـدورون حـول العـالم وأنـت في غرفتـك. انتحـر أشـخاص بسـبب ذلـك.

٢

قديمـا، قبـل سـنوات العزلـة، عـلى مدخـل المدينـة علقـت يافطـة كبـيرة «مرحبـا بـك في مدينـة يحبهـا الـرب".

بعـد ثلاثـة أسـابيع مـن الوبـاء، قبـل عـشر سـنوات، سـأل رجـل في حانـة بصـوت عـال، قائـلا:

- هل تخلى عنا الرب؟

قبـل أن يكـسر زجاجـة البـيرة ويقطـع شرايـين يـده، لفـرط وحدتـه وإحساسـه بالحـزن.

٣

في اجتـماع كبـير حـضره مجموعـة مـن العلـماء، بعـد وبـاء العزلـة والحـزن، قـال أحـد العلـماء:

- لا أعتقد أن الإنترنت السبب، ساعد الإنترنت على تحسين الناس أيضا، له إيجابيات لا نستطيع نكرانها.

رد عليه آخر، ضاحكا بيأس:

- إذًا، من فعل هذا؟ كائنات فضائية؟!

- الرب، لحكمة لا نعرفها.

- لكنك لا تؤمن بالرب؟

- بعدما رأيت هذه الوجوه داخل المدينة وما حدث، أنا مؤمن الآن يا صديقي.

حاول البعض إيجاد تفسيرات لما حدث أو صنع علاج ما، فشل الجميع ويبقى ما حدث في مدينة كاملة لغزا. طال النسيان المدينة ووباءها، لا يتصدر عناوين الأخبار والإنترنت.

عاشت المدينة في النسيان، كرجل عجوز لا يملك أصدقاء، توفيت زوجته وانشغل أولاده عنه.

٤

محاولات الأطباء في الحديث مع أهل المدينة باءت بالفشل، الجمل الصغيرة المقتضبة، لم توضح ما يعانيه الناس أو كيف بدأت التعاسة، لذلك ظلت الأيام السابقة للوباء منسية. واقتصر العلاج على أدوية ومقابلات أسبوعية، داخل غرف ضيقة يجلس الإنسان التعيس على مقعد في غرفة خالية، ومن الميكروفون يأتيه صوت الطبيب، الجالس في مكتبه في مدينة ثانية، يسأله عدة أسئلة ويجاوب المصاب إجابات تشبه التمتمات وينتهي الموعد.

تتناقص أعداد الناس بين الانتحار والأمراض الطبيعية، بعد سنوات

علم الجميع أن المدينة ستصبح خالية، مدينة أشباح تظل شاهدة على لغز بلا حل.

٥

في الثالث عشر من ديسمبر عام ٢٠٢٠، قبل الوباء بيومين اهتزت المدينة على خبر انتحار فتاة في السابعة عشر من عمرها، ألقت بنفسها من نافذة منزلها عارية.

للموت أسباب عدة قد تكون مثيرة للخيال وأحيانا مثيرة للغثيان، وعلى مر تاريخ الإنسان انتحر الملايين، يترك البعض خطابات قبل انتحارهم والبعض يرحل في غموض، بلا خطابات ويترك مصيره لأقاويل الناس، وهذا ما حدث للفتاة ابنة السابعة عشر، شعر أبواها بالعجز، وتداول الناس خبر انتحارها يوما كاملا ثم ذهبت طي النسيان.

شاركت الفتاة صورتها على الإنترنت متوجسة للمرة الأولى، وتلقت سيلا من التعليقات الهازئة والانتقادات المختلفة على مظهرها، وصفها البعض بالقبيحة، وعليها البحث عن حب حياتها في المقابر، إنها تليق بالموتى، هكذا قال شخص لا يعرفها، تفصلهما مدن عدة ومحيط وملايين البشر.

يغط أبواها في النوم فيما هي تتحرك مرتبكة وخائفة نحو النافذة، ورأى جثتها، في الأخير، مجموعة من السكارى العائدين إلى منازلهم، وجدوها مهشمة الرأس وتحولت الثلوج البيضاء المحيطة بجثمانها، إلى اللون الأحمر، بدا المنظر مرعبا، حتى أن أحدهم تقيأ.

لاحقا، دارت أولى روايات ٢١١٢ حول هذه الفتاة، عرف قصتها ونسج حولها رواية طويلة. تعاطف الناس مع بطلة الرواية، من وضعت حدا لحياتها، ولم تنتظر ميعاد الرب أو تدابيره.

ذهبت الفتاة طي النسيان، وربما، مازالت روحها عالقة في المدينة

المنكوبة، تصب لعناتها على العالم. فسر ٢١١٢ المأساة بسبب انتحار الفتاة، لو كانت تلقت كلمة جميلة، لعدلت عن قرارها. في روايته بعد انتحار الفتاة، تنزل لعنة على العالم ويعود إلى عصور الظلام، تنقطع الكهرباء ويحدث الزلزال والفتاة بطلته، تعيش في عالم جديد، بين السماء والأرض، رفقة ملايين المنتحرين ممن نبذتهم الحياة.

كان هذا تفسيره لما حدث، لم يعلنه صراحة من قبل، لكنه قاله للفتاة النائمة بحضنه الآن، وحاول تذكر اسم الفتاة المنتحرة ففشل.

قالت ٤٠٠١:

- تعتقد أن انتحار الفتاة السبب؟

- نعم، ما اسمك الحقيقي؟

- مريم.

- اسم جميل، لا تتخلي عنه مجددا.

- وأنت؟

- باتريك.

- ما ديانتك؟

- لماذا؟

- أحب أن أعرف!

- ليس لي ديانة، لكنني قرأت عن جميع الأديان.

نائمة على كتفه، ينظران صوب النجوم المعلقة في السماء الواسعة، ما زال الليل يفرد سطوته على عالمهم، وخارج دائرة النار ينتظرهم الصقيع.

قالت:

- أريد البقاء معك هنا، في المدينة وحدنا، بلا ازدحام أو إنترنت، وكل فترة نأتي إلى هنا معا.

- كيف؟

- سنتحدث معا فقط، تخيل مدينة كاملة ملك لنا، لا أحد يهتم بنا أو بما نفعله، ناس صامتون للأبد.

- وبعد أن يموت الجميع؟ نعيش وحدنا في مدينة أشباح؟

- لا أهتم، سنكون معا.

- هذه أنانية، يجب مساعدة هؤلاء الناس؟

قالت غاضبة:

- كيف نساعدهم؟

- لا تغضبي، لكن لا نستطيع الحياة على أنقاض الآخرين دون محاولة تغيير حياتهم.

عاد الصمت بينهما، راودتها فكرة سخيفة، عن حجم نهديها، قالت:

- هل أحببت نهدي؟

نظر إليها مندهشا، وقال:

- ما هذا السؤال؟

- صدري صغير، ودائما ما يسبب مشكلة للرجال الذين عرفتهم في حياتي.

ضمها بيديه وقال:

- هذا عالم سخيف، أنت جميلة وجسدك رائع!

أرادت البقاء داخل دائرة النار البدائية إلى الأبد رفقة هذا الرجل.

قالت:

- كيف يمكننا النجاة من عالم هكذا؟

- المدينة؟

- لا العالم الخارجي، الأضواء الساطعة والإنترنت والازدحام والمباني القبيحة!

- لا يمكننا النجاة، علينا الاختيار بين الاندماج معهم ونصبح عبارة عن مستهلكين، يشترون أشياء بلا فائدة، ويمسكون بالأجهزة في أيديهم طول اليوم، أو العزلة، وكلاهما مصير مفجع.

- إذا خيرت بين الأمرين، سأختار العزلة، طالما سأبقى معك!

- سيصيبك الملل سريعا، الحياة مع كاتب سيئة.

- ما اسم روايتك الأولى، عن الفتاة المنتحرة؟

- اسمها «في عمر السابعة عشر».

ابتسمت ولاطفته بيديها وقالت:

- أتعرف، وقت دخولك المقهى، كنت أقرأ هذه الرواية، جئت بها مهربة من الخارج، صدفة غريبة!

- وما رأيك؟

- أنت رائع. ثم قالت ضاحكة:

- بعد سنوات، ربما نعثر على تمثال يشبهك في أحد ميادين المدينة.

٦

يحب باتريك حين يعثر على قارئ شغوف، خصوصا من يقرأ روايته عبر الأوراق، وليس من خلال الأجهزة الإلكترونية.

يوم جاء إليه الناشر ببنود العقد، ليمضي عقد روايته الأولى، رفض أحد البنود عن بيع الكتاب عبر المواقع الإلكترونية، لا يحب تحويل كتابه إلى صيغة ما على الإنترنت، أصابه هذا بالذعر، يريد أن يتداول الناس كتبه ورقية. لكنه وافق تحت وطأة حاجته للمال ورغبته في النشر، تباع كتبه الورقية لكن المبيعات الإلكترونية هي ما يحقق المال.

عرف حزينا أن عصر الورق يقترب من نهايته، ولا يستطيع فعل شيء سوى الاستسلام، لا يستطيع وحده إيقاف الزمن والعودة إلى الماضي، يحتاج معجزة، في عالم لا تحدث فيه معجزات. لديه رغبة في التوقيع على الكتب الورقية للقراء، يبتسم حين يفعل ذلك، لكن التوقيع والإهداء في طريقهما للاندثار أيضا. الأشياء الجميلة تندثر، وما يبقى عالم يكرهه، يستسلم لنزواته وعقول مبدعيه في جعل الحياة، على حد قولهم، سهلة، لكنها تبقى، مهما فعلوا، سخيفة ومقيتة، وجالبة للتعاسة.

رواياته الثلاث الأخرى تدور في عوالم قبل وجود الإنترنت، قبل وجود الإنسان القائمة حياته على استهلاك أشياء لا يريدها، يحاول إيقاف الزمن بكلماته، المقاومة الوحيدة الممكنة.

قبّل مريم على رأسها، ما زالت عارية. بدأ بعض الهواء البارد يتسرب داخل حلقة النيران، رفضت ارتداء ملابسها، قائلة:

- لنظل تحت الغطاء فقط، هل تشعر بالبرد؟

- لا.

أشعل سيجارة وراقبها وهي تغفو، غفوات متقطعة، بدت جميلة تحت أضواء النيران المتراقصة وعاد إلى متاهات الذاكرة.

محاولات الانتحار المتتابعة، والثلاث عشرة ندبة فعلها لنسيان ألمه النفسي، كمراهق يريد إثارة انتباه الآخرين. وروايته الأولى التي تمكث في درج مكتبه، خمسمئة صفحة، بدت كخطاب طويل يرسله إلى فتاة لا تهتم. عندما أعاد قراءة أوراقها قرر نسيانها في درج مكتبه، وكتب عن الفتاة المنتحرة، وتساءل، لماذا انتحرت عارية؟ وهل حقا كلمة جميلة كانت تنقذ حياتها؟

أسئلة تبقى عالقة في ذهنه لا يملك إجاباتها وستظل إلى الأبد هكذا.

في عيد ميلاده الثامن والثلاثين، بكى طويلا وحده وسط أوراقه، بدون رفقة.

وضع قبلة على فم مريم، قبلة صغيرة استيقظت على أثرها من النوم، وقال وهو ينظر في عينيها الناعستين:

- لقد اخترت المنفى هنا!

ذهب إلى مسؤول كبير، بعد خروجه من المستشفى بعد محاولة الانتحار الأخيرة، وحدثه مرتبكا تحت تأثير الإعياء في رغبته بالحياة هنا، أراد فقدان الذاكرة والذهاب إلى المدينة التعيسة، لم يرفض المسؤول طلبه حفاظا على حياته، بدا باتريك كرجل منهك ويستحق الراحة.

يتحدث باتريك عن حياته وتستمع مريم، ما زال يلتقط المشاهد الأكثر قسوة من حياته، والأكثر عزلة، وأمامه على الجهة الأخرى مدينة مستيقظة وخلفه مدينة تنعم في سباتها المخيف، لا يقلق سباتها سوى صوت امرأة تبكي وفاة زوجها.

استيقظت ٣٤٩ فزعة وذهبت إلى غرفة النوم، واتكأت برأسها على جثمان زوجها تبكي رقم ٣٥٠ ناسية اسمه، لكنها متذكرة كونه زوجها، وشعرت بما شعر به هو قبل وفاته بدقائق بالافتقاد، وأخذت تضرب وجهها بيديها حزنا عليه، استيقظت من سبات العزلة والحزن ووجدت زوجها ميتا. تذكرت حياتهما قبل الوباء، شراء الورد وتجوالهما في الشوارع، ويوم زفافهما البعيد. تذكرت ما آلت إليه الأمور وكيف وهي تحبه، عاشت بجواره سنوات طويلة، ولم تتبادل معه سوى أحاديث عابرة.

العزلة كتبت الفصل الأخير في قصة حبهما، أفضل سنواتهما ذهبت هباء، تذكرت رجلا تنتظر ميعاد عودته من العمل يحمل وردة، وأحيانا يغني لها أغاني الطفولة. الشاب اليافع المستلقي أمامها ميتا.

خرجت إلى الصالة وعبر الهاتف المنزلي، الموضوع في كل منزل، على طاولة صغيرة، طلبت الرقم الوحيد المتاح، عليها الضغط على رقم ٢ ويجيبها أحدهم ويلبي طلبها.

الطلبات المعتادة في المدينة هي التبليغ عن موت شخص يعيش معك، أو تعتذر عن الذهاب للعمل لأن المرض تمكن منك تماما، ولا تستطيع العمل. لا أحد يجيب على الهاتف، رأت أنه من غير اللائق بقاء زوجها هكذا إلى شروق الشمس، نظرت في الساعة المعلقة على الحائط، ما زالت الرابعة فجرا لا يوجد موظفون، الجميع يغط في

النـوم.

٨

ارتـدت مريـم ملابسـها، الأجـواء أصبحـت بـاردة جـدا، اتفقـا عـلى رؤيـة الـشروق معـا ثـم العـودة للمدينـة.

قـرر باتريـك أن يثـور وحـده، يحمـل لافتـة أو يهتـف بصـوت عـال، في أكـبر ميادِيـن المدينـة المنكوبـة، سـيحاول وحـده إيقـاف الحاكـم والوبـاء. لم يشـارك في مظاهـرة مـن قبـل في أي وقـت كان، عـاش مسـالما في كنـف المجتمـع يؤيـد المظاهـرات ولا يشـارك فيهـا. اليـوم سـيقف وحـده أو رفقـة مريـم، وربمـا النحـات العجـوز يشـارك أيضـا.

جـاء إلى المدينـة هربـا مـن نفسـه والمجتمـع والآن يحـاول الثـورة في يومـه الثالـث.

قال:

- سأهتف غدا ضد الحاكم؟

- وحدك؟

- هل تكونين معي؟

- بالطبع، أنا معك حتى الجحيم.

نامت على كتفه، وفي انتظار صنع ثورتهما نسجت الأحلام.

الفصل التاسع

١

استيقظ الحاكم في الخامسة فجرا في ميعاده المعتاد منذ توليه حكم المدينة. يحب رؤية خيوط الشمس الأولى وهي تنساب على مدينته. يجلس على مقعده الأثير مطمئنا، يرتدي بالطو يواجه به برودة الصباح. يشبه والده، قصير القامة مكتنز الجسد، وعلى عكس والده، رفض الزواج، يضاجع فتيات يأتين خصيصا من بيوت الدعارة.

يرتشف قهوته. يكره القهوة لأنها بداية الثورة على والده، ولأن الجميع يشربها في الصباح، يشربها مرغما ليستفيق، ويتأمل مدينته قبل استيقاظها.

يفكر في بناء مصانع أخرى، رغم تناقص أعداد الناس، يحتاج بناء متحف جديد أو عدة تماثيل، وربما يغير أسماء بعض الشوارع. في خامس سنوات حكمه، هاجمه صديق رفض طريقته في إدارة المدينة، قطع علاقته معه.

يعطي أهل المدينة ما يحتاجونه: الطعام والعمل والمنزل والمقاهي والحانات منتشرة في الأرجاء، ماذا يريد الإنسان أكثر؟

حياة كاملة، شوارع ممهدة لا تزدحم، كل إنسان لديه عمل ويضمن قوت يومه. المرتبات قليلة، لكن في مدينته لا يحتاج أحد إلى مال، سوى لشراء السجائر والذهاب إلى الحانة، والسينمات مجانية، والكتب أيضا لمن أراد القراءة.

يتساءل كل صباح، ماذا يريد الإنسان أكثر من ذلك؟

قال صديقه قبل زمن:

- الإنسان يحتاج حرية الاختيار، وأنت تختار أعمالهم وكتبهم والأفلام، أنت تختار كل شيء ولا تبحث جادا عن أي علاج!

قال الحاكم يومها:

- هؤلاء لا يأبهون لشيء مما قلته، إنهم غارقون في أحزانهم!

قال الصديق، قبل أن يرحل:

- فكر في علاجهم.

قال في سره: أي علاج يحتاجه هؤلاء الخونة.

يستيقظ الحاكم على كابوس مروع، لا يرويه أبدا، أن يستفيق أهل المدينة من سباتهم وقد ظن هو أنه أبدي.

٢

استلقت مريم ونامت نوما عميقا، مر الشروق دون أن تراه. ما زال باتريك يستجمع شتات حياته من الذاكرة، اكتملت حياته، لفظه الهروب وعادت إليه ذاكرته، كما لفظه الموت سابقا ثلاث مرات.

يشعر بأنه مسؤول عن مصير مدينة لم يزرها يوما في حياته، قرأ عنها مثلما فعل الجميع. رأى الشمس تصعد من خلف الأبنية

الشاهقة على الجهة الأخرى، قال بصوت مسموع: «قريبا لن تجد الشمس مكانا، في سماء عالمنا، ستذوي الحياة، ونتحول لآلات».

لا يسمعه إنسان، ومريم تتنفس هادئة، تنام مطمئنة رغم وجودهما في العراء.

رأى طفلته تتجول في منزل الأحلام، خطواتها الأولى وكلمتها الأولى، شعرها الأسود الكثيف يتمايل وهي تمشي. كان ينتظر بلوغها الثامنة، كما خطط، ويبدأ يحكي لها حكايات يرويها قبل نومها.

في درج مكتبه مئات الحكايات، كتبها إلى طفلته، لن تقرأها.

يريد الهرب ولا يوجد مفر، عادت ذاكرته، سوداويته، روايته غير المكتملة، كره العالم، بكاءه اليومي على طفلته. عليه الحياة ثانية مع أفكاره وأحلامه المستحيلة، عليه مرافقة نفسه حتى الموت.

انطفأت النار. لا يعرف الساعة، خمن أنها السادسة، الآن تستيقظ المدينة، وقريبا يخوض حماقته ويتظاهر رفقة فتاة واحدة.

٣

غفا باتريك غفوة قصيرة، رأى أحد أحلامه القديمة.

نجيب محفوظ يستند بيديه على عصاه، يترقب الساعة المعلقة على الحائط، منتظرا تدخين سيجارته التالية بعد مرور ساعة كاملة، يدخنها بدون قهوة، القهوة هنا في ذلك المكان المعلق بين السماء والأرض مذاقها سيئ. يمر الوقت، يتذكر الجمالية، ما زال غارقا في ذكريات الصبا، يفتقد صحبته. وعلى مقربة منه يقطع دوستويفسكي الغرفة جيئة وذهابا واضعا يديه خلف ظهره، يفكر في مصائر أبطاله، والديون المتراكمة وطاولات القمار، لا يوجد من يخبره أنه في ذلك المكان، غير مطالب بتسديد شيء، إنه حر أخيرا، حر من القمار

والصرع والكتابة والديون. كافكا جالسا أمام طاولة، عيناه قلقتان، يراقب خطوات دوستويفسكي، لا يعرف هذا العجوز، لا يعرف أي شخص في الغرفة، يمسك القلم، يستنزف نفسه، يريد كتابة خطاب آخر إلى فتاة لا تأبه، يخبرها عن ضعفه وأسوأ مخاوفه وأنه استيقظ ذات يوم ووجد نفسه في هذه الغرفة رفقة مجموعة من أشخاص لا يعرفهم، مثلما استيقظ أحد أبطاله ووجد نفسه وقد تحول إلى حشرة مخيفة، لا يستطيع إنهاء الخطاب، يرتبك من خطوات العجوز. وعلى طاولة أخرى، يدندن جورجي أمادو بعض الأغاني من مدينته المحبوبة باهيا، يقلد أصوات الموسيقى كما سمعها في الحانة المجاورة للميناء، ما زال غارقا في حب مدينته ويكره أحيانا البحر، لقد ابتلع الكثير من رفاقه، يريد الكتابة مرة أخرى عن محبوبته الأزلية باهيا، يفتقد البحر رغم كل شيء والموسيقى، في هذا المكان الممل لا يرى سوى السماء من النوافذ الواسعة، توقف جورجي عن الدندنة وتساءل متى يحل الليل، بصوت عال، لا يتلقى إجابة كالعادة، منذ مجيئه لا يأتي الليل أبدا، نهار أبدى. سمع جابرييل ماركيز سؤال جورجي، لكنه اكتشف منذ قدومه استحالة تبادل الأحاديث في الغرفة المعلقة، صمت مطلق عدا أصوات خطوات البعض، وإذا أردت إجراء حديث، عليك التكلم مع نفسك، طاولات كثيرة متجاورة ونوافذ تطل على السماء، منظر واحد لا يتغير، وبشر يجلس بعضهم، وآخرون واقفون، البعض يتجول، عرف ماركيز أنه عالق هنا، ربما إلى الأبد، مثلما عُلق فلورنتينو اريثا وفيرمنيا داثا في سفينة لن ترسو على أي ميناء رفقة بعضهم، لكن داخل الغرفة المعلقة ذات المنظر الواحد للسماء يجلس ماركيز وحيدا دون زوجته حتى، رفقة هؤلاء البغضاء. وبجوار نافذة عالية استند خوسيه سارماجو بكتفه على حافة النافذة مبتسما، يظن أنه يعيش إحدى رواياته، في هذه الغرفة دون فرصة للنجاة مثل أبطاله. حوائط الغرفة، عبارة عن مكتبة كبيرة، عدا النوافذ التي تطل على المنظر الأبدي، حتى إن ألبرتو مورافيا، حاول القفز ذات مرة منها، حين أصابه

السـأم مـن التجـول داخـل الغرفـة بـلا هـدف.

فتـح باتريـك عينيـه عـلى صـوت مريـم الغاضـب، الـشروق فاتهـا. عادت أحلامـه المخيفـة، البقـاء في غرفـة واحـدة معلقـة بـين السـماء والأرض، رفقـة كتابـه المفضلـين، ولا يتبـادل الحديـث معهـم، طـاولات ومنظـر واحـد لا يتغـير للسـماء، خلـود مخيـف.

٤

قالت مريم:

- لماذا تكتب روايات قصيرة فقط؟

قال وهو شارد الذهن:

- في عـالم سريـع ربمـا لم يعـد يوجـد إنسـان يقـرأ كتابـا مـن ألـف صفحـة.

قالت:

- أنا سأقرأ!

فكـر باتريـك في مريـم كقارئـة مخلصـة جميلـة، داعـب خصـلات شـعرها، وقـال:

- ربما أكتب رواية طويلة ذات يوم.

مـا زالـت غاضبـة غارقـة في أحلامهـا، فاتهـا الـشروق، أرادت رؤيتـه رفقـة باتريـك، لحظـة رومانسـية مـا كادت تنقـرض، الـشروق والغـروب بـلا أهميـة الآن، لا يعلـق النـاس آمالهـم عـلى الأفـق، آمالهـم متوقفـة عـلى الآلـة الحديثـة.

قال باتريك، قاطعا الصمت هذه المرة:

- لماذا استيقظت وأنا أرتدي قميصا؟

- ثغرة حمقاء من رجال الحاكم، كان يجب أن تستيقظ وأنت ترتدي البدلة السوداء.

- لقد قابلت فتاة ما؟

- نعم إنها بائسة تنفذ الأوامر فقط.

قال كأنه تذكر شيئا:

- لقد مارست الجنس معها، جنس غريب.

غضبت مريم، وقالت:

- هل أحببته؟

- هل تمزحين؟ كان مريعا.

قررا العودة إلى المدينة.

٥

في السادسة والنصف صباحا ومريم تنسج أحلامها حول باتريك، والنحات العجوز ما زال مزهوا باسمه الجديد، تلقى الحاكم مكالمة هاتفية من رئيس الشرطة يخبره عن امرأة، تبكي وفاة زوجها في المشفى.

أخرج الحاكم السيارة الوحيدة في المدينة، واستقلها ذاهبا إلى المستشفى، يقطع الشوارع مسرعا، يسير بمحاذاة خط التروماي ومن نافذة السيارة، يراقب وجوه الناس، ما زالت وجوههم كئيبة وخطواتهم بطيئة، اطمأن ذعره قليلا.

في المشفى ندم لعدم إنشائه سجنا، هدم سجن المدينة الوحيد

وبنى قصره مكانه لا يحتاج إلى سجن في مدينة لا تحدث فيها جرائم أو معارضة. أصابه الذعر من منظر امرأة جالسة على مقعد أمام جثمان رجل تبكي، قد يهدد بكاؤها عرشه. تحدث معها وتأكد أنها لا تبكي أحزانها الخاصة، تبكي زوجها فقط، والسنوات الضائعة من عمرهما.

أمر بدفن جثمان الرجل واحتجز المرأة داخل غرفة خالية في أروقة المستشفى، ووضع شرطيا على الباب، ومن هناك ذهب إلى المنشأة في انتظار اتصالات أخرى، أو شواهد من رجاله المنتشرين في الشوارع. داخل كل مقهى يجلس شرطي، يراقب العجائز غير القادرين على العمل، وفي المصانع أيضا أرسل رجاله مترقبا.

أمام مكتبه جلس قرب الهاتف، يفكر في مصيره حال استفاقة أهل المدينة من عزلتهم، ينتظره مصير مفجع، إلا إذا كانت المرأة حالة شاذة.

أراد دائما وضع اسمه في ذاكرة العالم، ويذكره التاريخ كحاكم مدينة صامتة. ويتذكر الناس المتاحف والتماثيل، وتخليده عظماء البشرية، رجل يحب الثقافة في زمن اندثارها. دخل والده التاريخ من الجهة الخاطئة، لا يريد مصير والده، يريد دخول التاريخ من الباب الأمامي. يخلد التاريخ حتى أصحاب الأفعال المشينة، وبعد سنوات طويلة، من كان وحشا في عصره، يكتسب أتباعا وهو مجرد كومة تراب داخل قبر منسي، والتاريخ حافل بأسمائهم.

يتداول بعض الناس سيرة نيرون بإعجاب، رغم جنونه وإحراقه مدينة كاملة، وستالين بعد سنوات طويلة من وفاته، لديه أتباع مخلصون يقدسون أفكاره، والبعض يريد إحياء نازية هتلر.

سيدخل التاريخ عاجلا أو آجلا، من الباب الخلفي أو الأمامي، أراحه التفكير في نيرون وهتلر وستالين، يكتسبون أتباعا حتى في زمن الآلات

والتقدم التكنولوجي. قطع رنين الهاتف أفكاره وعبر النافذة، عادت الثلوج تهطل، واحتجبت الشمس خلف السحب الكثيفة، وغادر الحاكم مكتبه مذعورا إلى الشارع.

يسير من ميدان لآخر يشاهد حزينا وجوه تماثيله مشوهة بأقلام ذات خطوط رفيعة، كأن طفلا يلهو على وجوه التماثيل. يسير رفقة ثلاثة من رجاله، تملكه الذعر ثانية من أن يفقد مملكته، يحتاج رجال شرطة حقيقيين، من حوله بؤساء لا يفقهون شيئا في أعمال الشرطة. أمر بتنظيف وجوه التماثيل، ووضع عند كل تمثال رجل شرطة.

٦

تتهادى السيارة داخل الغابة، الشمس محجوبة والثلوج تهطل، قال باتريك:

- لا أحب وجودك معي في المظاهرة، هي مغامرة حمقاء بأي حال وأخاف عليك من رجال الشرطة.

قالت بعد نوبة ضحك طويلة:

- ليسوا رجال شرطة حقيقيين، لقد استيقظت وأنت مرتدٍ قميصا، ثغرة حمقاء، لا يعرفون عمل الشرطة، لماذا لا تصدق؟ أخبرك بذلك طوال اليوم.

ارتاح قليلا. تلاشت ابتسامة مريم، لفكرة تهاوي مملكة أحلامها، هنا في المدينة التعيسة محمية من شرور العالم الخارجي، لا تريد العودة إلى الوراء، قالت:

- أريد الزواج منك؟

نظر إليها مستفهما، قالت:

- إذا سقطت المدينة التعيسة أو عاد الناس إلى طبيعتهم، أريد الاحتماء من العالم، لقد أحببتك، وستبقى أنت جدارا فاصلا عن العالم.

قال:

- كم عمرك؟

- ثلاثون عاما.

- كأنك طفلة صغيرة.

امتعضت، ووضعت نظريها صوب الطريق، قال:

- لا تريدين الزواج من رجل محطم، مجرد كومة من الأنقاض تتنفس، ولا يحب جر أحدهم إلى الهاوية معه.

في نهاية الغابة ركنت السيارة، خلف مجموعة أشجار كثيفة وعالية. أنقذت الكتابة حياته مرات ومرات، أحيانا في منتصف النهار كان يكتئب، لأن بعد ساعات عليه النوم، وتكرار يومه بحذافيره، لا يوجد ما يفعله سوى الكتابة، يكتب ويكتب، يصنع العوالم، ودائما النهايات تعيسة، النهايات الجميلة سخافة، تزوير. يهرب داخل الكلمات في أحلك لحظاته. ووقت فشله في كتابة حرف أو جملة كاملة، يصيبه الذعر ويعود إلى ذاكرته، إلى الرجل المستهلك، من يعيش على غرور الآخرين في امتلاك أشياء سخيفة، والزوجة المطيعة وطفلة غرقت بسبب جنون العالم. الكتابة جدار آمن يفصله عن العالم، يفهم مريم جيدا، رغبتها في جدار يحميها. وصلوا إلى أطراف المصانع، الشمس ما زالت خلف السحب الكثيفة، والثلوج بثبات تهطل غير آبهة بالمصائر، والجنون والتكنولوجيا. أوقف مريم وقال:

- أنا موافق.

سيتزوج امرأة قابلها قبل يوم واحد، ومارس الحب معها في العراء، بين الأضواء الساطعة والصمت المخيف، لا يعرف مخاوفها وما تحويه أعماق ذاكرتها، وعلاقاتها السابقة، لا يعرف سوى جسدها وبعض الحكايات الصغيرة ولون عينيها، وأنفها الصغير ونظارتها. لا يحبها، يشعر بالامتنان فقط نحوها، لكنه يريد المجازفة، كأنه يكتب رواية داخل شقته الصغيرة.

احتضنته مريم ووضعت قبلة صغيرة على وجنته، وضحكت، ثم عادت واحتضنته مرة ثانية، قالت:

- نذهب إلى الجامع أو الكنيسة؟

- ما زال الوقت باكرا، لنعثر على أحد يزوجنا!

- لا، يجلسون منذ الصباح في دور العبادة.

- حسنا، لا يهم أي مذهب، دعينا نتزوج.

يمشيان وسط ضجيج المصانع، ومئذنة الجامع والصليب بعيدان قرب الأفق، عشر دقائق من المشي. تتشبث بيده فرحة.

قال:

- ماذا يحدث إذا لم يذهب أحدهم للعمل؟

- ينتظرون يوما وفي الثاني يذهبون إلى منزله، يكون ميتا أو مريضا لا يقوى على الحركة.

- يحب الناس العمل.

- لا يريد أحد البقاء مع أفكاره وحده.

٧

الجامع مغلق، بالأمس مات الشيخ الأخير، من يؤم الصلاة. قبل أمس كان وحده في الجامع، مات جميع العجائز المواظبين على الصلاة. عرجا على الكنيسة، استقبلهما شيخ هرم وجهه حزين، لحيته كثيفة بيضاء، يرتدي صليبا صغيرا ورداء أسود. كنيسة واسعة وفي نهايتها معلق المسيح على الصليب ناظرا إلى الأسفل. بدا الكاهن مهموما، قال عندما رآهما:

- قادمان لأجل الصلاة؟

قالت مريم متحمسة:

- لا، جئنا من أجل الزواج.

تراجع الكاهن خطوة إلى الخلف، آخر زواج في الكنيسة تم قبل عشر سنوات، في الرابع عشر من ديسمبر، بدا متوجسا وقال:

- لكن الزواج ممنوع!

قال باتريك:

- بأمر الرب؟

- لا بأمر الحاكم؟

- والحاكم ليس الرب! زوجنا أيها الكاهن.

عند المذبح وقف الكاهن وأمامه وقفت مريم قبالة باتريك مبتسمة. ترتدي فستانها الأسود، خلعت البالطو ووضعته على الأرض مع النظارة. يقف الكاهن حائرا، مرت دقيقة كاملة، قال باتريك:

- لا تخش الحاكم يا سيدي!

قال الكاهن:

- أنـا لا أخـشى الحاكـم، اعـذرني يـا بنـي، لقـد نسـيت عهـود الـزواج، لم يتـزوج أحـد منـذ زمـن طويـل.

بعد صمت طويل، قال الكاهن أخيرا:

- يبـارك الـرب زواجكـما، وتباركـه السـماء، ولتعيشـا معـا في الـسراء والـضراء.

ثم وجه نظره نحو مريم وقال:

- أتقبلين ذلك الرجل الواقف أمامك زوجك وتبقين معه إلى الأبد.

قالت مريم:

- أقبل.

ثم توجه الكاهن بنظره لباتريك وقال:

- أتقبل بهذه المرأة زوجة لك، لتعتني بها في كل الأوقات.

قال باتريك:

- أقبل.

قال الكاهن:

- لأنـه لا يوجـد حـاضرون، أعلنكـما زوجـا وزوجـة والشـاهد هـو الـرب، يمكنـك تقبيـل العـروس الآن.

اقـترب باتريـك وقبلهـا قبلـة طويلـة أمـام الكاهـن، في الكنيسـة الخاليـة، ويشـهد عـلى زواجهـما الـرب والكاهـن الكهـل.

ارتجل الكاهن كلماته، ما زال ناسيا عهود الزواج.

٨

بعد رحيل مريم وباتريك تسمر الكاهن في مكانه، تذكر على نحو مباغت، فساتين الزفاف البيضاء والورود المنثورة على الأرضية الخشبية للكنيسة، ولهو الأطفال والقمصان البيضاء، تذكر القبلات ووالد يقدم ابنته باكيا إلى يد زوجها. ما زالت عهود الزواج غائبة عن ذاكرته، لكنه تذكر حفلات الزفاف، وقف دقائق ينظر إلى الفراغ، يغوص في أعماق ذكرياته المنسية، ويعود بذكريات سعيدة من الأعماق المظلمة، ينزاح الظلام رويدا، رأى حشود المصلين القديمة، الغناء في أعياد الميلاد، يرى ما ظنه اندثر.

٩

في الشارع رفضت مريم إخفاء ابتسامتها واحترام تعاسة الآخرين والاندماج بينهم، تتعلق بيد باتريك تبتسم ببلاهة، وضحكت بخجل لأنها سألت زوجها «هل أحب صدرها الصغير؟» قبل مراسم الزواج. تعيش جزءا من حلم كاد يندثر، الزواج في كنيسة خالية، رفقة رجل تحبه في مدينة بدون تكنولوجيا، وكاميرات تصوير للتباهي، ينقصها الثوب الأبيض ويد والدها.

ركبا التروماي عائدين إلى بيت النحات العجوز. لفت أنظارهما وجود شرطي يقف قرب كل تمثال.

استقبلهما النحات العجوز يتمتم ببعض الكلمات البذيئة، رافضا وجودهما، ما زال الوقت باكرا لاستيقاظه من النوم، قال:

- أنا رجل عجوز يحتاج النوم.

قالت مريم:

- لقد تزوجنا قبل ساعة.

- تهاني أيها الحمقى، لكنني أريد النوم أكثر.

على أرضية غرفته ينام الشبان الثلاثة، قال النحات وهو يشير إليهم:

- شوهنا التماثيل بالأمس، كانوا معي.

صنع النحات ثلاثة أكواب من القهوة، وبدأ يحكي مغامرات الليلة الفائتة، وسأل باتريك باهتمام:

- ماذا أقول، اليوم؟ أو الليلة الفائتة؟ حدث هذا فجرا.

قال باتريك:

- لا أعرف، يمكنك قول الليلة الفائتة.

عاد النحات يسرد الحكايات، كيف هرب من الشرطة وتخفى وسط كومة ثلوج لئلا تراه الشرطة، وصعوده على كتف الشاب الأكبر رقم ٥٩٨ وشوه تماثيله بيده، متخليا عن حزنه في سبيل إنقاذ أهل المدينة من براثن الحاكم. هز باتريك رأسه يصطنع الإعجاب بكلمات النحات الكاذبة.

قال باتريك:

- ما اسمك فعلا؟

- أعجبني أدولف هتلر. وقال ضاحكا:

- اعتمدت الاسم.

قالت مريم:

- هتلر سفاح، من يحب اسم سفاح؟

قال النحات متحمسا:

- أنـا، سـيبقى في التاريـخ اثنـان هتلـر، هتلـر النـازي السـفاح، وهتلـر الـذي حـاول مسـاعدة أهـل مدينـة تعيسـة. اسـم مميـز.

قال باتريك مبتسما:

- حسنا يا هتلر.

ابتسم العجوز وقال:

- إذا من أنت؟

قال باتريك، بتلقائية شديدة:

- اسـمي باتريـك، رجـل جـاء يحمـل تعاسـته الخاصـة مـن الخـارج، لم أكتسـبها هنـا.

كأن العجوز لم يفهم، هز رأسه فقط وشرد وجه مريم.

تحـدث باتريـك عـن خطتـه، التظاهـر والهتـاف ضـد الحاكـم، بـدا الخـوف واضحـا عـلى هتلـر والتحمـس عـلى مريـم. مجـرد خطـة بسـيطة، التظاهـر، لعـل الهتافـات تحـرك الميـاه الراكـدة، تزعـزع سـبات أهـل المدينـة أو بعضهـم عـلى الأقـل. اختـار باتريـك التوقيـت، الثانيـة عـشرة والنصـف وقـت انتهـاء المناوبـة الأولى في المصانـع والمنشـآت، وقـت ازدحـام المقاهـي والشـوارع بأصحـاب الوجـوه التعيسـة والسـاهمة.

قال هتلر:

- الهتاف فقط؟

- نعم.

- حسنا، سأنام قليلا ونتقابل هناك. ثم قال:

- أين المكان؟

قالت مريم:

- كارل ماركس، أكبر ميدان وأكثرها ازدحاما.

١٠

في ميدان كارل ماركس توجد المنشأة النفسية، والمشفى الصغير ومقاهٍ متناثرة، يجلس فيها عجائز في هذا التوقيت، العاشرة صباحا، تتبقى ساعتان ونصف على الموعد. قرب الزجاج الكاشف للميدان، جلسا معا، مريم وباتريك، يحمل المقهى اسم ساراماجو الكاتب البرتغالي، أحد كتاب باتريك المفضلين، اختار المقهى على حسب الاسم.

في حافظة التساؤلات لديه، أخرج سؤالا كان منسيا، ماذا لو مات ساراماجو قبل عودته إلى الأدب بعد سنوات طوال من اعتزاله، لا يذكرها باتريك، كما مدون في قصة حياة سارامجو، وافتقد العالم لغته ورواياته؟

ماذا لو مات في حادث سيارة؟ أو مرض خبيث؟ أو قتله شخص يكرهه بشدة؟

قبل بداية مشروعه الأدبي. سيبقى كاتبا كتب رواية واحدة، اعتزل بعدها. تذكر باتريك المقاهي قرب مكان سكنه القديم، يصطحب معه دائما رواية ما، خصوصا بعد طلاقه. يخرج أحيانا وقت ضوء النهار إلى مقهى قريب، يحمل كتابا يراقب الآخرين يحملون الأجهزة النقالة. يغيظه الأمر، بعض الكتب الورقية الآن توضع في المتاحف، مثل تماثيل الأزمنة القديمة يصبح الورق من التاريخ. منزله يعج بالكتب الورقية، يقتني منها الكثير في كل زيارة إلى مكتبة ما، لم يقرأ نصفها حتى، الخوف من اندثار الورق يقلقه، يخاف من المستقبل، من الآلة المتحكمة، من الاستهلاك غير المبرر للأشياء من ملايين التعساء الصامتين خلف أجهزتهم الإلكترونية. عالم لا يحبه، مجبر على الحياة فيه.

تذكر هاشم صاحب محل بابه صغير وامتداد طويل، وعلى جانبي حوائط المحل تصطف الكتب في ترتيب معين. ورث هاشم المحل وحب الكتب عن والده، عمر المحل قرن تقريبا، يبيع الكتب القديمة فقط وعبر السنين يتضاءل عدد زبائنه، تبقى لهاشم عدد قليل من الزبائن ومئات الكتب.

عاد باتريك من ذاكرته، يتأمل ابتسامة مريم، وقال:

- أريد إنجاب أطفال!

نبتت الفكرة في ذهنه فجأة، إنجاب الأطفال. وبعد انتهاء اليوم، يريد البدء في بناء منزل على الشاطئ مكان حلقة النار ويبني مكتبة واسعة ومحلا صغيرا أيضا يبيع فيه الكتب، على أمل أن يسأم الناس من القراءة الإلكترونية أو يتخلى العالم عن تقدمه السريع ويسير ببطء.

بدت مريم شغوفة، تمسك يد باتريك وتنسج الأحلام معه.

الفصل العاشر

١

بيوت بلا شرفات. غرفة واحدة وصالة واسعة، نافذة في غرفة النوم وأخرى داخل الصالة، شوارع بلا حدائق أو أشجار على جانبي الطريق. شارع طويل يقطع المدينة ومنه تتفرع شوارع قصيرة على الجانبين وميدان صغير أمام كل تقاطع، بين الشارع الطويل، شارع جوزيف، والد الحاكم الحالي، والشوارع القصيرة. تتوسط الميادين تماثيل فلاسفة وكتاب ومفكرين، لا توجد تماثيل تخلد العلماء، يكره الحاكم العلم ومصطلحاته المعقدة، وفي كل ميدان تجد مقهى أو اثنين وبارات تبيع الخمر الرديء القادم من الخارج وثمنه رخيص كما طلبه الحاكم. قضبان التروماي تقسم شارع جوزيف نصفين ويتبقى مكان صغير لقيادة السيارات، يقود الحاكم أحيانا في الليل إذا رغب. يقطع التروماي الميادين بانحناءة بسيطة وكل شارع فرعي محطة تروماي.

خمسة متاحف لا يزورها أحد إلا نادرا منتشرة في شارع جوزيف، ومكتبة كبرى ممتلئة بالكتب تفتح أبوابها في الثامنة صباحا. كل الكتب للعرض عدا الكتب المسموح بقراءتها، دائما تكون المكتبة شبه خالية إلا من موظفة وحيدة، تجلس على مقعد تتأمل الفراغ حزينة. وفي ميدان كارل ماركس تتجاور المقاهي والمنشأة النفسية ومشفى صغير خال، منذ بدء الوباء ويستسلم الناس لأمراضهم راغبين في موت سريع بدلا من الموت اليومي. قديما قبل الوباء، كان النصف الآخر من المدينة

منازلـه ذات حدائـق. وحدائـق عامـة تنتـشر وطريـق مـؤدٍ عـبر الغابـة إلى الشـاطئ، وعـلى بعـد ثلاثـة كيلومـترات مـن المدينـة توجـد المقابـر. اهتـم النـاس بالمقابـر قبـل الوبـاء، هنـاك يرقـد شـهداء ثوراتهـم، مقابـر تعـود إلى مئـات السـنوات ويرقـد الأحبـة والأقـارب والأصدقـاء، وورود مزروعـة بـين المقابـر وبعضهـا.

ذبلـت الـورود واقتـصرت زيـارة المقابـر عـلى دفـن التعسـاء وتطـأ أقدامهـم عـلى الـورود غـير مبالـين. والبيـوت ذات الحدائـق، بنيـت مكانهـا المصانـع. والحدائـق العامـة، أصبحـت مـن المـاضي البعيـد.

وبعـد عـشر سـنوات مـن بدايـة الوبـاء قسـمت المدينـة بـين بيـوت باهتـة اللـون ومصانـع أصواتهـا صاخبـة.

مدينـة قبيحـة. قبـلا عـلى مداخـل أغلبيـة البيـوت تجـد رسـومات وشرفـات واسـعة للجلـوس، بعـض البيـوت كانـت بنيـت في أزمنـة بعيـدة، وظلـت صامـدة في وجـه الزمـن، وانهـارت تحـت وطـأة غـرور حاكـم صمـم مدينـة للتباهـي.

ثـلاث سـينمات تعـرض أفلامـا رديئـة أسـبوعيا، يحـضر القليـل مـن النـاس العـروض. عـروض السـاعة العـاشرة مسـاء فقـط، أفـلام مضحكـة لا تثـير ضحكهـم.

٢

هُدمـت البيـوت الجميلـة وشـيدت المنـازل القبيحـة. بسـواعد أبنـاء المدينـة الغائبـين في متاهـات العزلـة، ومئـات العـمال أصحـاب الأجـور المرتفعـة، جـاءوا مـن خـارج المدينـة. خـلال سـنتين أصبحـت المدينـة الحالية أمـرا واقعـا، عـاش النـاس في خيـم فـترة منتظريـن انتهـاء البنـاء.

أحـب سـكان المدينـة التعسـاء الانهـماك في العمـل. العمـل الشـاق نجـاة مـن التفكـير، يعملـون بجهـد منـذ سـنوات.

غيبوبة طويلة ولا أمل في الشفاء، ونسيان ترسخ عبر السنين من العالم الخارجي.

٣

في الكنيسة والجامع يُذكر فقط اسم الرب، الصلوات الدائمة لفك كرب المدينة تدوي خافتة، وظل المتدينون في اقتناع تام أنه غضب الرب.

صوت المصانع الصاخب تغلب على صوت الأذان، وجرس الكنيسة الضخم لا يدق بأوامر عليا، صوته يثير غضب الحاكم ويقلق راحته، أثناء وجوده داخل مكتبه أعلى المنشأة النفسية. لم يفقد أحد في المدينة إيمانه أو لم يهتم أحد بالرب، أصبح على هامش حياتهم، يتذكرونه أحيانا عند الوفاة، صلاة قصيرة على الموتى.

العجائز ما زالوا مواظبين على الذهاب إلى الكنيسة والجامع، مات آخر رجل مسلم يصلي، وطوال شهور قبل وفاته كان يصلي وحيدا. وتبقى ثلاثة عشر رجلا وامرأة، أعمارهم تتجاوز السبعين، يذهبون إلى الكنيسة يوميا، ينتظر الحاكم وفاتهم، ويحول الكنيسة إلى متحف آخر، لا يزوره أحد سواه.

اشتهرت المدينة سابقا بالثورات والتعايش، والآن تتلخص شهرتهم في التعاسة والتدخين. يدخن الناس بشراهة ويشربون قهوتهم ببطء، يليق بحياتهم وخطواتهم في الشوارع.

٤

هدأ ذعر الحاكم قليلا لا يتلقى تقارير عن شفاء أي شخص، فقط المرأة ومن رسم على تماثيله رسومات طفولية.

بدأ يفكر جديا في إنشاء سجن خوفا من حالات شفاء تُبدد صفاء

مدينتـه. فكـر في الجامـع المغلـق، بنـاء واسـع وجميـل، يهـدم المئذنـة ويبنـي غرفـا صغـيرة داخلـه.

قطـع أفـكاره حـول سـجنه الخـاص، دخـول النحـات العجـوز إلى مكتبـه. أرسـل في طلبـه، ليتناقـش معـه في وضـع التماثيـل، ربمـا يحتـاج إعـادة نحـت الوجوه.

جلس النحات مقابله، قال الحاكم:

- أرأيت ما حدث؟

قال النحات:

- لا، ماذا حدث؟

يـد النحـات ترتعـش خوفـا يبـذل جهـدا في محـاولات الثبـات، حتـى لا يفضـح نفسـه، قلقـا مـن مصـير مظلـم يضعـه فيـه الحاكـم السـمين. قـال الحاكـم:

- شوه رجل ما وجوه التماثيل، برسوم سخيفة.

قال النحات:

- وعرفت من هو؟

- لا للأسـف، أحتـاج رجـال شرطـة جيديـن، يجـب أن تذهـب لتلقـي نظـرة لإصـلاح مـا حـدث.

قال النحات بصوت خافت:

- لكن...

قاطعه الحاكم ضاحكا:

- لا تقلق يا رجل، ستأخذ ما تريد من مال.

ابتسم العجوز ورحل مطمئنا، تاركا الحاكم يفكر في مصير المرأة المسجونة داخل إحدى غرف المشفى.

٥

خرج الناس من المصانع والمنشأة أفواجا بعد انتهاء المناوبة الأولى، ازدحمت الشوارع والمقاهي والنادل الكهل في مقهى ساراماجو، يلبي طلباتهم ببطء. خرجت الشمس من عباءة السحب وأرسلت أشعتها الدافئة. باتريك حائر، نصف ساعة فقط ويعلن ثورته ضد الحاكم، لا يعرف هتافا معينا. اطمأن قليلا عندما تحدثت مريم عن رجال الشرطة البسطاء، لم يشارك في مظاهرة طوال حياته والآن عليه التظاهر وحده، رفقة زوجته وربما نحات عجوز مزهوا باسم أدولف هتلر الديكتاتور العظيم.

قال رجل فجأة وهو يقف أمام طاولة مريم وباتريك:

- لقد تذكرت عهود الزواج.

ابتسامة تنير الوجه المتجعد، وجه رجل شارف على الثمانين، كاهن الكنيسة. سحب الرجل مقعدا، وجلس وسط باتريك ومريم قائلا:

- بعد مغادرتكما تذكرت الزواج والعهود والفساتين البيضاء.

ارتشف الرجل بعض المياه وقال:

- نجوت من المصير المؤلم بفضل الرب وبفضلكما، نجوت حقا، تذكرت لحظات سعيدة، المئات منها يزدحم بها رأسي.

يداه ترتعشان، ما زال يستعيد الذكريات السعيدة من عقله، تمر الأحداث داخل رأسه متسارعة. قال بعد دقائق من الصمت، ترك فيها

باتريـك ومريـم حائريـن:

- الرب أنقذني، أرسلكما لي.

قال باتريك:

- ألا تشعر بالتعاسة؟ أو الحزن؟ بماذا تشعر؟

- أشـعر برحمـة الـرب والحـزن لمصـير البقيـة، لكننـي سـعيد، والذكريـات في عقـلي أتذكرهـا لأول مـرة منـذ سـنوات، سـنوات طويلـة.

قالت مريم:

- كيف وجدتنا؟

- بالصدفـة، قـررت البحـث عنكـما في المقاهـي أولا ثـم كنـت سـأذهب لجميـع البيـوت للبحـث عنكـما، الشـفاء معكـما، الـرب أرسـلكما.

سـعادة مريـم تـوازي سـعادة الكاهـن، المكتشـف السـعادة لتـوه. صدقـت أنهـا يـد الـرب، وبقـي باتريـك يفكـر في مظاهرتـه بعـد دقائـق.

وقـف الكاهـن يـدور حـول نفسـه في المقهـى، يقـول بصـوت عـال وهـو يشـير نحـو مريـم وباتريـك:

- اتبعوهما، أرسلهما الله لشفائكم.

فكـر باتريـك في كلـمات الكاهـن، ربمـا حقـا أرسـله اللـه إلى المدينـة. يؤمـن بالـرب ويؤمـن أن الـرب لا يتدخـل في شـؤون البـشر يمنحهـم حريـة الاختيـار.

داخـل المقهـى المتكـدس بأصحـاب الفسـاتين والبـدل السـوداء، تحـول صمـت التعاسـة إلى صخـب الأمـل. أحاديـث هنـا وهنـاك، صـوت الكاهـن يتعـالى ومريـم بشـغف تخبـط عـلى الطاولـة، لقـد سـئمت صمـت المقاهـي،

الصمت الدائم والأحاديث الخافتة المقتضبة.

وحده باتريك هادئ في مكانه، ينظر إلى الشارع غير مصدق، عشر سنوات كاملة ويأتي الشفاء بهذه البساطة؟ والأيام الضائعة من أعمار هؤلاء الناس من يعوضهم عنها، والمنتحرون بلا خطابات أخيرة من يعيدهم، والمدينة القديمة الأثرية لا يمكن إعادة بنائها.

أصبحت الأجواء جنونية في المقهى، ومريم وقفت تهتف ضد الحاكم. قال باتريك في سره:

«أعيش رواية مفككة، لم يجد كاتبها نهاية لائقة، تصلح لعشر سنوات ضائعة على أوراقه الخاصة».

الناس يتحدثون معا وينظرون إلى مريم وباتريك، نظرة المنقذين. يراقبهم باتريك غاضبا، عشر سنوات هكذا، يرهقه التفكير، ابتسامات عدة ظهرت فجأة من العدم، كما ظهرت العزلة سابقا من العدم.

٦

وقف باتريك يهتف ضد العزلة، ويردد العشرات خلفه، قائلا «تسقط العزلة»، اجتذب صوتهم الناس في الخارج، تهشمت بعض الطاولات من حماس الناس، والكهل العجوز، نادل المقهى، ترك أخيرا كوب قهوة يسقط أرضا، وليس عليه بعد عشر سنوات تلبية طلبات الزبائن وهتف معهم ضد العزلة والحزن. جلس الكاهن وسط الناس على ركبتيه، يصلي.

يهتف باتريك وبداخله يردد «رواية مفككة، نهاية سيئة». تتشبث مريم بيده سعيدة، غدا يوم الخامس عشر من ديسمبر عيد ميلادها الثلاثون.

ممتنة للرب، جعلها بطلة في عامها الثلاثين، عاشت على الهامش

ثلاثين عاما، مثلما عاش الرب على الهامش عشر سنوات، داخل المدينة المنكوبة.

عادت بعض الذكريات السعيدة إلى أذهان الناس، وعلى أعناقهم حملوا باتريك ومريم وخرجوا إلى الشارع يهتفون ضد العزلة والحزن. وفي الشارع التف حولهم آخرون. في ظرف دقائق تحولت لمظاهرة كبرى، تذكر الجميع بالأمجاد الماضية قبل الخنوع للإنترنت والحاكم، وسنوات العزلة الطوال. يستكشف الجميع سعادته الخاصة، يتلذذ بالذكريات السعيدة البائدة، وقد خرجت من أعماق ذاكرتهم المظلمة، توارت التعاسة، وأخيرا، أفسحت المجال للسعادة.

وقف باتريك على كتف تمثال كارل ماركس العريض، المصنوع بحرفية عالية، التمثال الأول لحاكم أراد صنع مجده الخاص. وهتف لأول مرة ضد الحاكم، يسقط الطغاة، ويسقط الإنترنت، وتسقط الآلة، وهتف دون دراية ضد الكتب الإلكترونية، يهتف من أجل النجاة، يثور للأشياء التي يحبها وهي على شفا الانقراض، تناسى أسئلته، وسط الصوت العالي، حتى إنه هتف باسم طفلته وردد الناس خلفه متحمسين.

٧

في شارع جوزيف يمشي الناس في مظاهرات صاخبة، تفرق الجمع الكبير إلى مظاهرات صغيرة متفرقة، وعدوى السعادة أصابت الجميع، يهتفون ضد الظلم ووجوههم مبتسمة. مظاهرات هنا وهناك، صخب يصم الآذان، يمشون في جماعات، يهتفون ضد كل شيء.

ومن نافذة مكتبه راقب الحاكم مذعورا ما يحدث. تطل نافذة مكتبه على ميدان كارل ماركس، انتهى حلمه وإذا لم يستطع الهرب، سيدخل التاريخ من بابه الخلفي مثل والده. يتحرك وحده، خطواته

مرتبكـة، لا يوجـد أتبـاع، ليـس لديـه خطـة، ووقـف المتظاهـرون عـلى سـيارته، وتحطمـت وسـيلته الوحيـدة للهـرب.

ظـل حبيـس مكتبـه سـاعات، وظـل النـاس في الشـوارع يهتفـون بـلا كلـل.

ذهبـت الشـمس مبتعـدة، تمنـى الحاكـم برغبـة أخـيرة، الرحيـل معهـا وهـو يراقبهـا مـن خلـف نافذتـه العاليـة.

٨

سألت مريم، موجهة حديثها لباتريك:

- ما الخطوة التالية؟

وجـد باتريـك نفسـه محاطـا بمجموعـة كبـيرة مـن النـاس، ينظـرون إليـه في انتظـار يشـوبه الحـماس وقلـة الصـبر، لكنـه لا يـدري الخطـوة التاليـة. قـال:

- لنحـرق مجـد الحاكـم، أحرقـوا التماثيـل، أحـضروا البنزيـن مـن المصانـع.

في خـلال دقائـق صـب النـاس مئـات الليـترات مـن البنزيـن عـلى التماثيـل، وأشـعلوا فيهـا النـار، تعالـت ألسـنة اللهـب وأضيئـت الشـوارع بالنـيران المتراقصـة.

عـرف باتريـك وسـط كل هـذا، أنـه بالصدفـة وحدهـا انتزعهـم مـن براثـن الحاكـم والتعاسـة، وبمحـض إرادتهـم سـيعودون إلى الإنترنـت وممارسـة التعاسـة والعزلـة خلـف الشاشـات الصغـيرة.

أضيئـت الشـوارع بنـيران التماثيـل الصامـدة. ومـن بعيـد كتلـة نـيران هائلـة تتصاعـد في سـماء المدينـة، منـزل الحاكـم يحـترق، المنـزل الضخـم

المشيد على تعاسة أهل المدينة، يتحول إلى رماد يتناثر مع الهواء، وسيبقى حطامه شاهدا على انهيار مجد الرجل المرتبك، داخل مكتبه.

أشعل الحاكم سيجارة ينتظر هادئا مصيره، اشتعلت تماثيله، شعلة نيران متوهجة في ليلة باردة تدفئ أبناء المدينة الثائرين، الخونة كما يلقبهم حاكم في طريقه للزوال، قريبا، سيتحول مجده إلى رماد.

٩

قبل عشر سنوات اختار الحاكم مكتبه في أعلى نقطة من المنشأة النفسية، المسرح السابق المنسي لأهل المدينة، مسرح شهد مئات المسرحيات عبر سنوات طويلة، جيدة وسيئة، شهد ممثلا ينحني باكيا إلى الجماهير، وآخر تلقى هتافات غاضبة بسبب تمثيله السيئ، صنع بعضهم المجد هنا، لكنه مجد يبقى في ذاكرة شخص واحد ينساه الجميع، بمرور الأيام.

نوافذ تطل على جميع أنحاء المدينة، مغلقة في فصول الشتاء، يحميه الزجاج من الهواء البارد وفي الصيف تفتح النوافذ على مصراعيها. ومن النوافذ راقب منزله يحترق وتماثيله تندثر، يزول ما صنعه في سنوات خلال يوم واحد، يأتيه الصوت الصاخب والهتافات غير المفهومة، ولا يدري ماذا حدث؟ وكيف بدأ الأمر؟

ينتظر مصيره مطمئنا وحزينا لزوال ما صنعه، وحيدا بلا رفقة يشاركونه النهاية التعيسة، على الأقل كانت والدته بجوار والده وقت هزيمته.

سمع جلبة شديدة قرب مكتبه، دخل مجموعة كبيرة غاضبة من الناس حملوه على أعناقهم من يديه وقدميه، بدا كرجل مصلوب على أعناق البشر.

درجات طويلة من السلالم منحته وقتا للتفكير في طريقة موته، ربما داخل نيران منزله المحترق مثل والده أو مشنوقا بمعطفه الثقيل، يرتدي معاطف جيدة ستتحمل وزنه. لم يرد قتل نفسه، لا يريد أن يظهر عبر صفحات التاريخ كرجل جبان، يهمه التاريخ حتى في لحظاته الأخيرة، حزن على مكتبه الممتلئ بمئات الكتب النادرة وسط قصره المحترق، على الرغم من أنه لم ينه كتابا واحدا، لكنه اختار كل كتاب بعناية.

الهواء عاصف بالأسفل، شعر بالوحدة محاطا بالآلاف وحده، ينتظر مصيره، كل هؤلاء يكرهونه.

١٠

مات الحاكم في غفلة عن باتريك، ذهب رفقة مريم لحماية المكتبة الكبرى، وقف أمامها ومنع الناس من إشعال النيران فيها. احترقت المتاحف والتماثيل وقصر الحاكم.

قابل باتريك الحاكم لأول مرة وهو يتأرجح على مشنقة على مدخل المنشأة النفسية، عيناه جاحظتان للخارج، مغطى بالدماء. كان سيرفض قتله، شعر بالغضب وعرف كلمات الحاكم الأخيرة:

«يا أبناء الخونة والعاهرات، سأدخل التاريخ رغما عنكم».

يتداولها الناس ضاحكين، كلمات رجل الأخيرة رأى مجده يزول.

كان محقا، سيدخل التاريخ وكما قرأ باتريك وتعلم، بعد سنوات ربما يكتسب أتباعا في المدينة ذاتها، يمجدونه ويرفعون شأنه كما رفعوه من رقبته قبلا.

١١

احترق كل شيء عدا المنازل والمصانع والمكتبة الكبرى.

وقـف باتريـك في وجـه الجميـع وقـت مطالبتهـم بإحـراق المصانـع، سـتظل مصـدر رزقهـم فـترة ليسـت بالقليلـة، لا يوجـد شيء سـواها يعملـون بـه.

حتـى المقاهـي تهشـم نصفهـا، وفي فـورة غضبهـم خلـع النـاس القضبـان الحديديـة وأحرقـوا العربـات، العائـدة إلى القـرن المـاضي، عربـات التروماي صاحبـة الصـوت الـرديء.

وبأوامـر الحاكـم الجديـد، باتريـك، كـما نصبـه النـاس، أمـر بتفكيـك الغـرف الخشـبية مـن داخـل المـسرح الأثـري، آخـر مـن تبقـى مـن المدينـة القديمـة بجانـب الجامـع والكنيسـة. عـلى أمـل أن يعـود النـاس لمشـاهدة المسرحيـات يومـا مـا.

١٢

ظـل النحـات العجـوز أدولـف هتلـر، داخـل منزلـه مزهـوا بنفسـه، معتقـدا أنـه بـدأ الثـورة عـلى الرغـم مـن احـتراق جميـع تماثيلـه التـي أحبهـا.

والمـرأة المسـجونة داخـل المشـفى خرجـت مـع ثلاثـة رجـال، يحملـون جثـة زوجهـا في طريقهـم إلى المقابـر، سـاعدوها مـن أجـل دفنـه دفنـا لائقـا، وداخـل مقهـى سـاراماجو المهشـم، نامـت مريـم عـلى كتـف باتريـك الغاضـب مـن النهايـة المفككـة، للمصـير المفجـع لأهـل المدينـة.

تأكـد باتريـك مـن زواجـه بطفلـة في عمـر الثلاثـين، تنـام نـوم الملائكـة، تنسـج مئـات الأحـلام وهـي عـلى كتفـه.

نـام بعـض النـاس في الشـوارع والبعـض يتجـول حـرا، يستشـعرون لـذة السـعادة، وبـلا كلـل ظـل كاهـن الكنيسـة يـدق الجـرس الضخـم سـاعات، معلنـا عـودة الـرب.

الفصل الحادي عشر

١

صباح هادئ يشبه صباحات أيام التعاسة والعزلة، الشمس محتجبة والأجواء باردة. تدفئ المعاطف السميكة والملابس السوداء أهل المدينة، آخر ما تبقى من الحاكم بجانب المصانع ورماد أمجاده المتناثر في الشوارع. انطفأت جميع النيران المشتعلة والحاكم يتأرجح من رقبته على مدخل المنشأة، وباتريك متجولا في المكتبة الضخمة يقرأ عناوين الكتب. صنع لمريم سريرا صغيرا على الأرضية مكونا من كتب لا يحبها، وتركها تنام في سلام.

في الخارج يتجول الناس صامتين يتبادلون نظرات الدهشة بشأن ما أصاب مدينتهم في غفلة تعاستهم، وفي غفلة التعاسة والعزلة أيضا فقد كل شخص قريبا أو حبيبا أو زوجة أو ابنا، كل إنسان فقد شخصا ما في غفلة التعاسة التي بدت كأبدية. عادت السعادة تستقر بداخلهم، وعاد الحزن بعد ساعات قليلة ينهش قلوبهم.

حان وقت البكاء على الأموات. خلال سنوات العزلة، يموت

المرء وحيدا لا يجد من يبكيه، لا يشعر بفقدانه الآخرون، بدأ وقت الرثاء والبكاء في الصباح الثاني بعد تحررهم من براثن العزلة والحزن الإجبارية.

٢

قال النحات العجوز:

- المدينة كئيبة بالخارج!

قال باتريك:

- لا تنس أن عشر سنوات من أعمارهم ذهبت هباء.

مريم ما زالت نائمة على السرير المصنوع من الكتب الرديئة، وقربها يجلس النحات العجوز وباتريك يدخنان. قال باتريك:

- لم تخبرني باسمك؟

- أحب أدولف هتلر.

ضحك باتريك ضحكة صغيرة، لئلا يوقظ مريم من نومها العميق، بدت منهكة بعد ليلة أمس. قال النحات العجوز:

- من مادلين؟ لقد هتف باسمها الناس بالأمس؟

- إنها ابنتي الصغيرة.

- تعيش مع والدتها؟

قال باتريك، وهو يتصفح كتابا أوراقه صفراء:

- لقد ماتت قبل عشر سنوات تقريبا.

تذكر باتريك هتافات الأمس ضد كل ما يؤرقه ويفتقده. شعر

النحـات بالأسـف الحقيقـي تجـاه باتريـك، قائـلا:

- ليذهب الموت إلى الجحيم!

لا يعـرف النحـات رغـم سـنواته الطويلـة في الحيـاة، اختيـار الكلـمات المناسـبة في حـالات المـوت.

تتثاءب مريم، مدت يديها وأمسكت يد باتريك، قالت:

- صباح رائع على زوجي العزيز.

أغلـق باتريـك الكتـاب، اقـترب منهـا ووضـع قبلـة صغـيرة عـلى فمهـا. ابتسـم النحـات وهـو في طريقـه للخـروج مـن المكتبـة عائـدا إلى منزلـه.

تعيـش مريـم روايتهـا الخاصـة، رغـم انهيـار مدينتهـا المفضلـة، ومـا زال باتريـك غاضبـا مـن النهايـة المفككـة للحـادث الأليـم، روايـة حزينـة نهايتهـا سيئة .

قالت مريم:

- ماذا سنفعل؟

- لا أدري.

٣

للمدينـة رائحـة الأشـياء المحترقـة. عـاد النـاس يتذكـرون أنفسـهم جيـدا، محـامٍ بـدون مكتـب وطبيـب عجـوز يكـره السـجائر يدخـن سـيجارته العـاشرة هـذا الصبـاح، وخيـاط ورث عـن والـده وأجـداده محـلا صغـيرا في ناصيـة مـا لا يجـد المحـل، فقـط مبـان قبيحـة مـن ثلاثـة أدوار، وطالـب جامعـي تبقـت سـنة واحـدة عـلى تخرجـه، وامـرأة فقـدت كل أحبائهـا في سـنوات العزلـة. في سـنوات العزلـة جمعتهـم المصانـع والبـدل الزرقـاء والأحاديـث القليلـة، والمقاهـي بأسـمائها القبيحـة.

يبكي الكثيرون السنوات الماضية والبعض ما زال يحاول جاهدا تذكر اسمه. تغيرت مدينتهم للنقيض، مدينة غريبة وقبيحة تبقت لهم. كره الناس العودة إلى البيوت الضيقة ذات الغرفة الواحدة، كان على بعضهم العودة للاطمئنان على أطفالهم، والبعض فضل التجول في الشوارع، وهناك من نام وسط المقاهي المهشمة أو في مداخل المباني.

وفي المقابر ذهب المئات وقدموا احترامهم للموتى، شواهد القبور تحمل أرقاما. جلس رجل أمام مقبرة زوجته يبكي متذكرا الأيام الخوالي، ماتت في السنة الخامسة من الوباء، في عمر السابعة والعشرين ألقت جسدها من الدور الثالث، شرع الرجل في تغيير الشاهد، يحمل سكينا وبدأ ينحت اسمها ووعدها بالعودة بالورود المرة القادمة، لا توجد ورود حول المقابر، اندثرت جميعها بأقدامهم خلال سنوات العزلة.

سطعت الشمس في الواحدة ظهرا، أشعة صماء، وكالعادة لا تهتم بالمصائر الضائعة لأهل المدينة، عليهم بناء حياتهم من جديد.

٤

راقب باتريك ومريم عربات الجيش والشرطة تسير في شوارع المدينة، جاءت تحفظ الأمن واستلام المدينة.

أرادت مريم أكثر من الرحيل صامتة خارج المدينة وتركها للمسؤولين، أرادت أن يستمر حلمها ثورة دائمة، هتافات، بطلة في عيون الجميع، رفقة رجلها، الفارس الوحيد في المدينة. ابتسمت لخاطرة عبرت في ذهنها، لم يعد باتريك الفارس الوحيد في المدينة، في هذا الصباح، تعج المدينة بالفرسان الثائرين.

٥

ما زال اللغز عالقا بدون إجابة واحدة، الإنترنت بريء، يقول البعض، والبعض يحمله المسؤولية مع نمط الحياة الحديثة، قال أحدهم وسط

جمع من الناس في مقهى ما زالت حالته جيدة:

- نحن نتقارب على الإنترنت وفي الحياة الواقعية تفصلنا مسافات، علينا ألا نسمح للإنترنت بدخول حياتنا مجددا.

همهم البعض معترضا، وقال رجل:

- إنها مشيئة الرب صدقني.

قال رجل بدا مهموما:

- مهما كان السبب، تغيرت المدينة وفقدنا أحباءنا وضاع عمرنا.

بعد كلمات الرجل الأخير عاد الصمت يحتل أركان المقهى، صمت يذكر الجالسين بالصباحات الصامتة والتعيسة. ستطاردهم ذكرى الأيام التعيسة وسيبقى لغز التعاسة والعزلة دائما.

ترك باتريك خلفه أهل المدينة الحائرين واصطحب مريم إلى حلقة النار، اختار مكان منزله الجديد، وشرع رفقة عدة رجال في بناء المنزل، يساعده الرجال، مجرد خدمة بسيطة للرجل الذي أخرجهم من متاهات العزلة.

٦

منزل مكون من دور واحد على الشاطئ، عزلة جيدة مع فتاة أحبها في صبيحة يوم الثورة بعد أن تزوجها بساعات.

عرف أن أهل المدينة عائدون للعزلة والتعاسة، لكن على الأقل هذه المرة باختيارهم، خلف الشاشات والآلات.

عاد باتريك إلى المدينة مرات، رآها تتعافى من أمجاد الحاكم مدعي الثقافة، رأى السيارات تقطع الشوارع ومحلات تفتح أبوابها، وبيوت تشيد على عجالة وأخرى تسقط، وملابس ألوانها مختلفة، ضخت

الدولة الملايين لمساعدة أهل المدينة. وراقب باتريك عن كثب، عودة الأجهزة الصغيرة بين أيادي الناس. ما زال يتلقى تحيات الجميع أثناء مروره ونظرات الامتنان تتبعه أينما ذهب. عبر شهور طويلة، عادت المدينة كركن راسخ في الحياة الحديثة، لعام ٢٠٣١، حتى المصانع تشتغل عبر الآلات والذكاء الاصطناعي.

يعيش بعيدا رفقة مريم، نهاية هادئة لا تشبه نهايات رواياته. يعيش وسط كتبه وأقلامه ومكتبته الخاصة، ما زال يكره النهاية على الرغم من كونه أحد أبطالها، تشبه نهاية الحادث الأليم، نهاية رواية سيئة مفككة كتبها روائي شاب يخطو خطواته الأولى في عالم الكتابة.

٧

على الشاطئ قرب منزلهما يمشي باتريك رفقة مريم، الشمس ساطعة، الثلوج ذابت، رحل الشتاء ولم تعد مريم تكن ضغينة للصيف. ترتدي فستانا أكمامه قصيرة، ينساب شعرها البني على صدرها، يخفي خلفه نهديها ناصعي البياض. الفستان مفتوح من منطقة الصدر، فستان صيفي أبيض يصل إلى ركبتيها، يظهر جيدا ملامح جسدها. سألته:

- ما رأيك في الفستان؟

- يناسبك تماما.

- فعلا؟

- نعم.

بعد ثلاثة أشهر، ما زال يفكر في نهاية الحادث الأليم. قالت:

- تشغلك النهاية ثانية، أنت ممل.

- أنا كاتب، أفكر في النهايات أكثر.

راقب عينيها تتحول للون البني تحت ضوء الشمس، وخصلات شعرها تؤرق وجهها الهادئ، بحاجبيه الثقيلين وأنف صغير، ملامح طفولية لفتاة في الثلاثين، يراها بعينين جديدتين عن زمن الوباء والثورة، يراها أجمل وبدت تفاصيلها واضحة لعينيه المنهكتين من أحزانه الماضية، يتعافى برفقة مريم من وبائه الخاص.

عند عودتهما إلى المنزل شرع في كتابة روايته الطويلة الأولى عن المدينة والسنوات العشر، سيختار نهاية لائقة للحادث الأليم. ينظر نحو مريم، وجد قارئا يضمن قراءة روايته الطويلة. وقبل أن يكتب جملته الأولى بدأ يفكر في النهاية اللائقة.

تمت